موسوعة
الثقافة التاريخية
والأثرية والحضارية

التاريخ الوسيط
٢١

عصر سلاطين المماليك

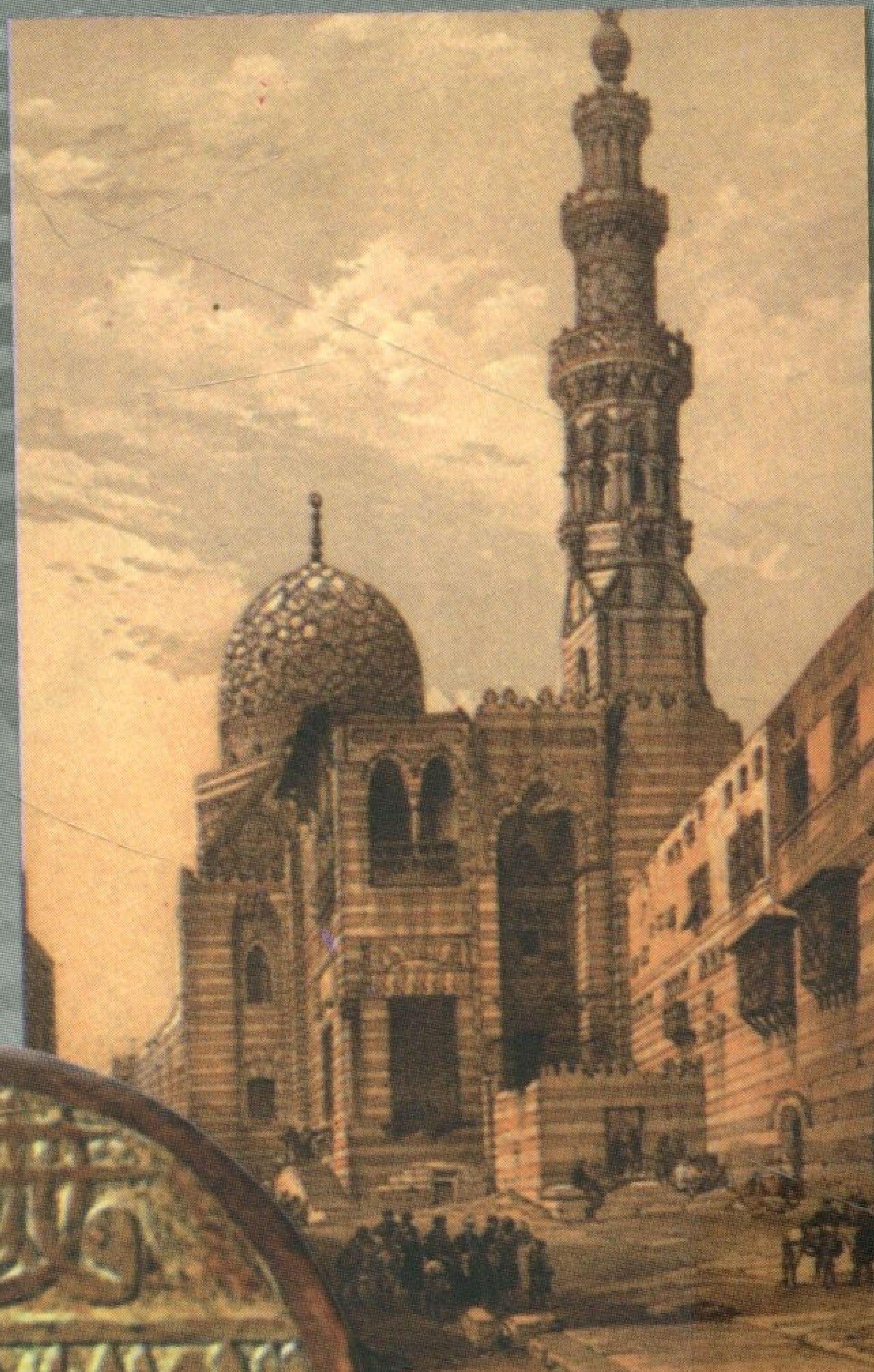

أ.د. عطية القوصى

تأسست سنة ١٣٦٥هـ ١٩٤٦م
دار الفكر العربي

موسوعة الثقافة التاريخية
والأثرية والحضارية

التاريخ الوسيط

٢١

عصر سلاطين المماليك

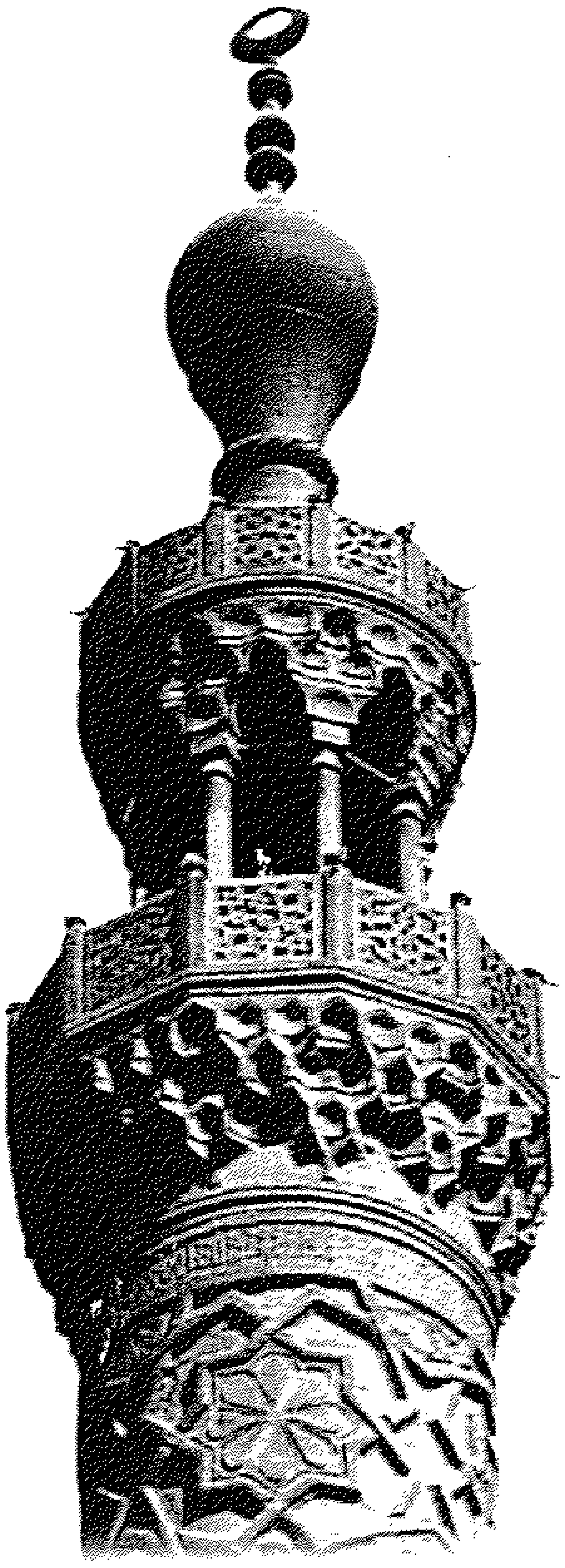

مئذنة قايتباى

تأليف
د. عطية القوصى
أستاذ التاريخ الإسلامى
بكلية الآداب - جامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربى
٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة
ت: ٢٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٢٧٥٢٧٣٥
٦ أ شارع جواد حسنى - ت: ٢٣٩٣٠١٦٧
www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com

موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

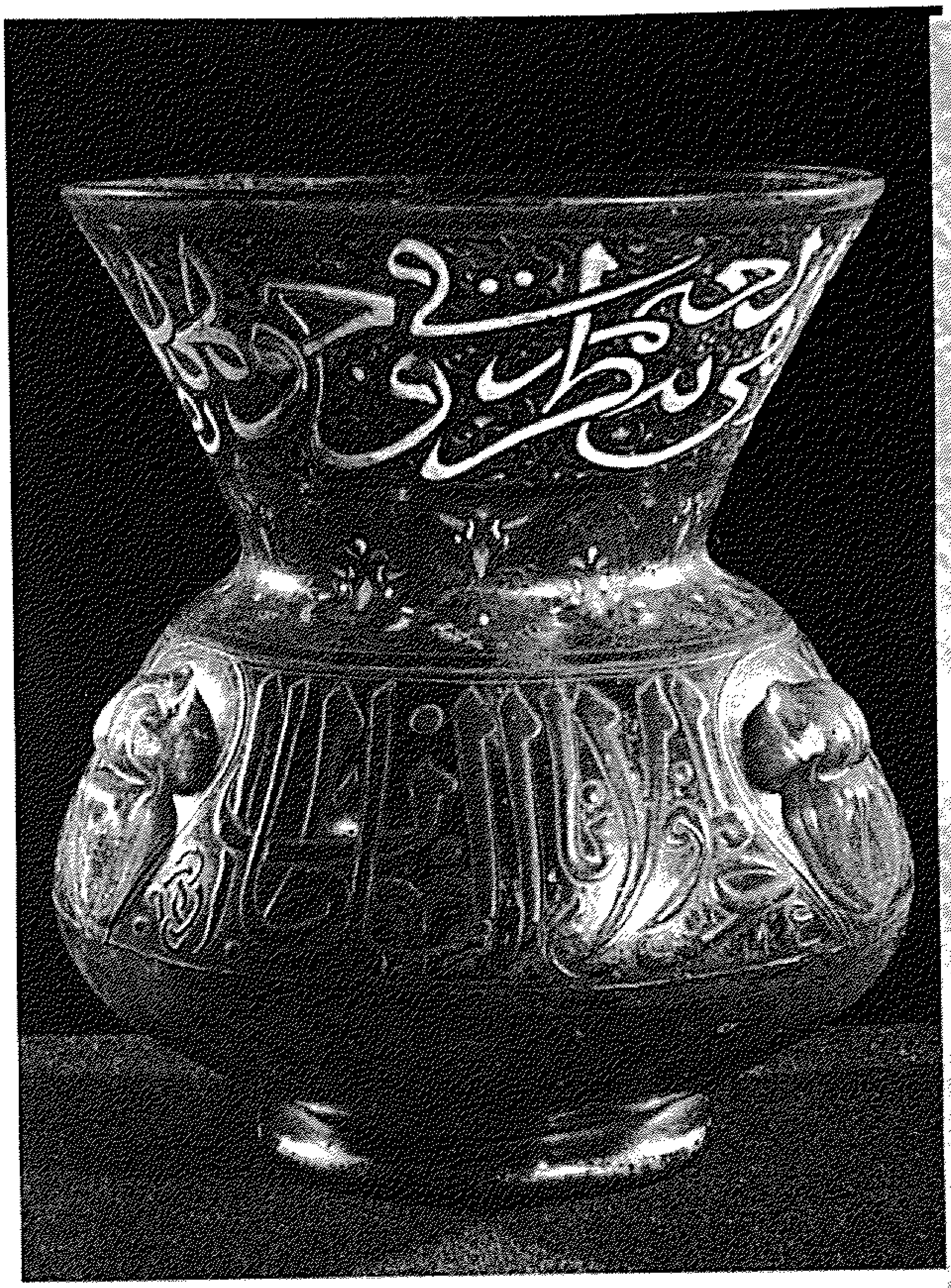

مشكاة زجاجية مطلية بالمينا- السلطان بيبرس الجاشنكير

الإشراف الفني
محيى الدين فتحى الشلودى

التصميم والإخراج على الكمبيوتر
منى حامد عمارة

٩٥٦,٠٦٢ عطية القوصى.
ع ط ع ص عصر سلاطين المماليك/ تأليف عطية القوصى. ـ القاهرة: دار الفكر العربى، ٢٠٠٧م.
أ-د ٩٦ص: صور؛ ٢٤ سم. - (موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية. التاريخ الوسيط؛ ٢١).
ببليوجرافية: ص٩٢ -٩٤ .
تدمك: ٦ - ٢١٣٤ - ١٠ - ٩٧٧.
١ - المماليك البحرية. ٢- المماليك البرجية. ٣- المماليك وآثارهم المعمارية . أ- العنوان. ب- السلسلة.

دار الفكر العربى

رقم الإيداع: ٨٣٧٩ / ٢٠٠٦

تنفيذ وطباعة الكتاب: مطبعة البردى بالعاشر من رمضان

اللجنة الاستشارية
لموسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

أ. د سعيد عبد الفتاح عاشور أستاذ تاريخ العصور الوسطى - كلية الآداب - جامعة القاهرة - رئيس اتحاد المؤرخين العرب. **رئيس اللجنة**

أ. د عادل حسن غنيم أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب - جامعة عين شمس. **مقرر عام اللجنة**

أ. د عبد الحليم نور الدين أستاذ اللغة المصرية القديمة بكلية الآثار - عميد كلية الآثار - جامعة القاهرة - فرع الفيوم - مدير مركز الخطوط بمكتبة الإسكندرية **مقرر التاريخ القديم**

أ.د إسحق عبيد أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب - جامعة عين شمس. **مقرر التاريخ الوسيط**

أ. د عصام الدين عبد الرءوف أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية الآداب - جامعة القاهرة. **مقرر التاريخ الإسلامى**

أ. د جمال زكريا قاسم أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب - جامعة عين شمس. **عضوا**

أ. د عطية أحمد محمود القوصى أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية الآداب - جامعة القاهرة. **عضوا**

أ. د صابر دياب عميد كلية الآداب جامعة القاهرة فرع الخرطوم «سابقا» وأستاذ التاريخ الإسلامى بكلية دار العلوم - جامعة الفيوم. **عضوا**

أ.د رأفت عبد الحميد عميد كلية الآداب - سابقا - جامعة عين شمس. وأستاذ تاريخ العصور الوسطى. **عضوا**

مديرا التحرير: الكيميائى: أمين محمد الخضرى
المهندس: عاطف محمد الخضرى
سكرتير اللجنة: عبد الحليم إبراهيم عبد الحليم
***التصميم والإشراف الفنى:* محيى الدين فتحى الشلودى**

جميع المراسلات والاتصالات على العنوان التالى:

دار الفكر العربى

موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

ت: ٢٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٢٧٥٢٧٣٥

www.darelfikrelarabi.com

INFO@darelfikrelarabi.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم السلسلة

التاريخ علم من أَجَلِّ العلوم الإنسانية وأعلاها قدرا وأكثرها فائدة. ويتطلب علم التاريخ فيمن يمارسه التحلى بأمانة الحكم وصدق الكلمة وبُعْد النظر والقدرة على الإفادة من دروس الماضى لمواجهة صعاب الحاضر والاستعداد لما قد يتفتق عنه المستقبل من أخطار وعقبات.

إن الروايات التاريخية قد تتشابه فى بعض أجزائها على مدى الدهور، ولكن التاريخ لا يمكن أن يعيد نفسه، بمعنى أن تتطابق أحداثه مع بعد المسافة بين حدث وآخر. فالإنسان هو الإنسان بكيانه الجسدى ومشاعره النفسية وتطلعاته وطموحاته.. على مر العصور، ولكن الظروف المحيطة به تتغير وتتبدل من عصر لآخر. وغالبا ما يتخذ هذا التغيير مواقف جديدة أو مسيرة مختلفة تسهم فى تحويل نظرة الناس إلى الحياة. وبدراسة التاريخ يمكن الوقوف على ما مر به الإنسان من تجارب وما يمكن أن يكون قد وقع فيه من أخطاء، وكيف يتجنبها فى الحاضر والمستقبل. وهذا ما عبَّر عنه بعض الحكماء بقوله: «من وعى التاريخ فى صدره، أضاف عمرا إلى عمره».

وقد أدرك هذه الحقيقة كثير من الهيئات الثقافية، فجعلوا للتاريخ حقه من الاهتمام والرعاية، وحرصوا على رعاية جمعه وحصاده وأحلوه فى مكانه اللائق.

وتأتى مؤسسة **دار الفكر العربى** التى أسسها الأستاذ/ **محمد محمود الخضرى**، التى تنهض بدور ملموس فى مجال خدمة الثقافة العربية. والتى وضعت مشروعا للثقافة التاريخية، واستعانت فى التخطيط لهذا المشروع بعدد من صفوة أساتذة التاريخ المتخصصين داخل الجامعات العربية وخارجها. كما وفرت الدار لهذه السلسلة الإخراج الفنى والتصميمات، وكذلك المراجعة اللغوية لخروج هذه السلسلة بالصورة التى تجدونها أمامكم.

وإن أسرة الدراسات التاريخية ليسعدها أن تقدم هذا الكتاب الذى يصدر عن **دار الفكر العربى** ضمن هذه السلسلة، سائلين لها دوام التوفيق فى خدمة الرسالة والنهوض بالأمانة.

أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور

1

مقدمة

يتناول هذا الكتاب تاريخ حكم سلاطين المماليك الذين حكموا مصر مدة ٢٧٤ عاما، حكم النصف الأول منها المماليك الذين عـرفوا بالبحرية (٦٤٨هـ - ٧٨٤هـ/ ١٢٥٠-١٣٨٢م) وحكم النصف الثانى والذين عرفوا بالبرجـية أو الجراكسة ٠من سنة ٧٨٤هـ حتى سنة ٩٢٢هـ/ ١٣٨٢-١٥١٦م) حتى الفتح العثمانى لمصر.

وتعتـبر فترة حكم سـلاطين المماليك لمصر من أزهـى تاريخ الحكم لمصر، ذلك لأن هؤلاء المماليك جعلوا من مصـر، أيام حكمهم دولة عظمى وإمبراطورية واسعة يخـشاها الجميع، وبرغم أن أصول هؤلاء المـماليك أصول غيـر مصرية لكن مـعظمهم ولد فى مصـر فصار مـصريا بالمولد والنشأة والتربية، وقـد قام هؤلاء المماليك بالحفاظ على استقلال مصـر وبالدفاع عنها ودرء عدوان أكبـر خطرين تعرضت لهمـا مصر، بل تعـرض لهما العـالم الإسلامى، وهما: الخـطر الصليبى والخطر المغولى.

وقد واصل سـلاطين المماليك محاربـة الصليبيين وتابعوا نصـر الأيوبيين عليهم، بل قـاموا بدحرهم وخلع جذورهم نهائـيا من بلاد الشام وتطهير الأرض الإسلاميـة من دنسهم، ونجحوا فى فرض سيـادة مصر على حوض البحر المتـوسط بسيطرتهم على كل جزره ومرافئـه. كذلك تصدى هؤلاء السلاطين للخطر المغولى الذى داهم العالم الإسـلامى، وأوقعوا أول الهزائم «للجيش الذى لا يقهر» فـى عين جالوت ومرج الصـفر، وفى كل نزال وقع لهم مع سلاطين المماليك فـحفظوا بانتصاراتهم للإسلام كرامته ورفعوا رايته، وحـولوا هؤلاء المغول إلى مسلمين يسبحون لله بحمده ووحدانيته.

وقد أقـام هؤلاء السلاطين فى مصـر والشام، أيام حكمهم حـضارة زاهرة ومدنيـة شاملة، تشهد على ذلك آثارهم وما خلفوه من مبان ومعمار، ومـا أقاموه من مساجد ومدارس ومؤسسات

دينية وتجارية تزخر بهـا مدن مصر والشام فى الوقت الحاضر وتتـفاخر بها على مدى الزمان والأيام.

وحقاً، فهؤلاء السلاطين أعطوا للإسلام والمسلمين الكثير وجاد الله بهم على مصـر فى الوقت المناسب لتظل شـعلة الحضارة الإسـلاميـة مشتـعلة على أيديهم ولتظل راية الإسلام مرفوعة خفاقة ولو كره المشركون.

والقارئ العربى فى حاجة ماسة لمعـرفة تاريخه وتاريخ أجداده حتى يأخذ الدرس والعظة وحتى يتأكد له أنه سليل أجداد عظام وأبطال ميامين، والله وحده هو المعين.

المؤلف

أ.د / عطية القوصى

سوق المماليك

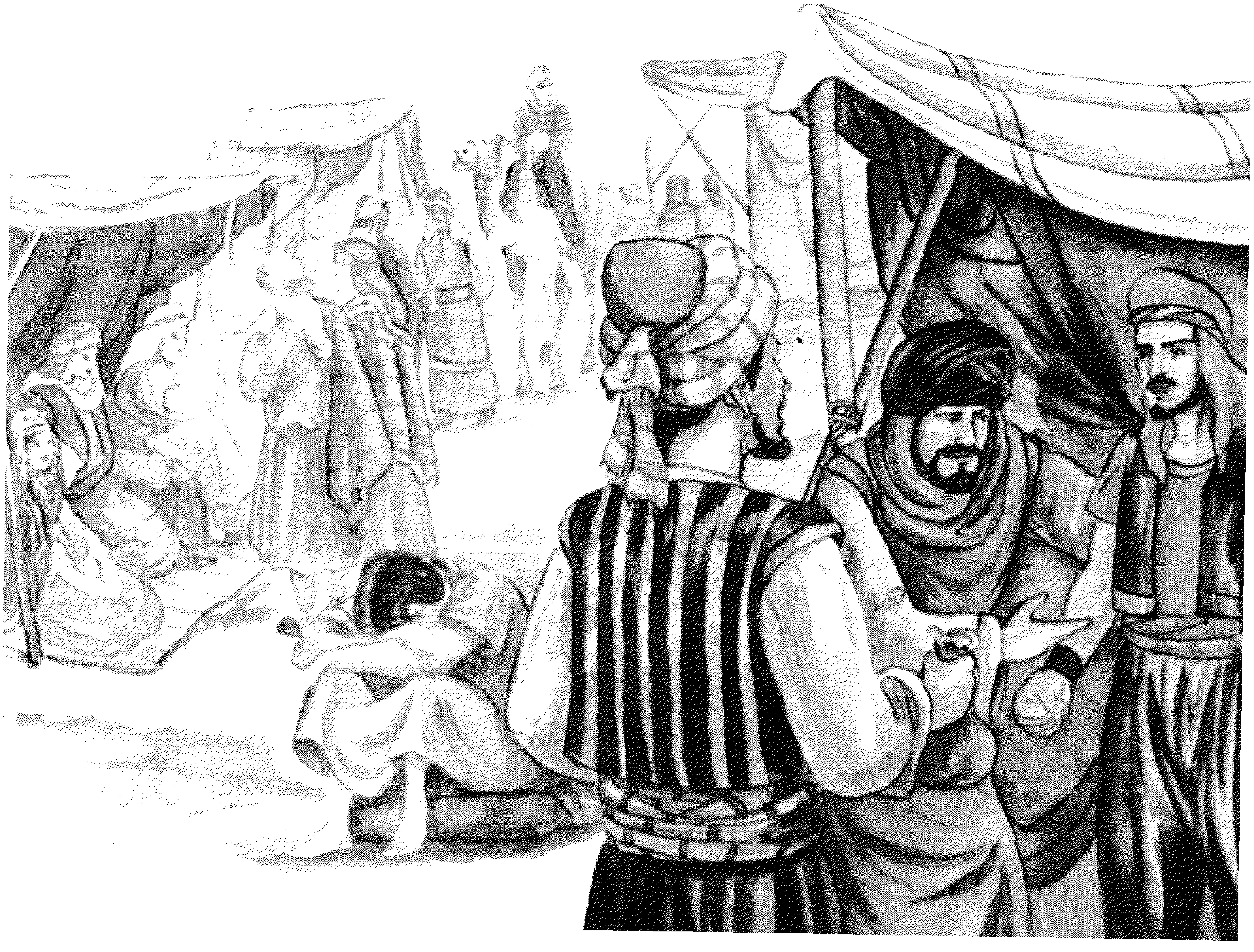

تمهيد

التعريف بالمماليك:

المماليك جمع مملوك والمملوك فى اللغة هو العبد المسترق الذى لا يملك حرية نفسه، والمماليك الذين صاروا سلاطيناً فى مصر والشام وحكموها، هم الرقيق الذين توافدوا على بلاد العالم الإسلامى منذ العصر العباسى الأول (١٣٢-٢٣٢هـ/ ٧٤٩-٨٤٦م) وجلبوا فى أول الأمر من وسط آسيا وغربها من منطقة التركستان الروسية، فى البلاد التى عرفها المسلمون قديماً باسم بلاد ما وراء النهر، نهر أمادوريا (جيحون)، وكانت هذه البلاد سوقاً هامة لتجارة الرقيق الأبيض، وكانت مدينة سمرقند (عاصمة دولة أوزبكستان الحالية) أهم مراكزها.

التدريبات العسكرية فى معسكر المماليك

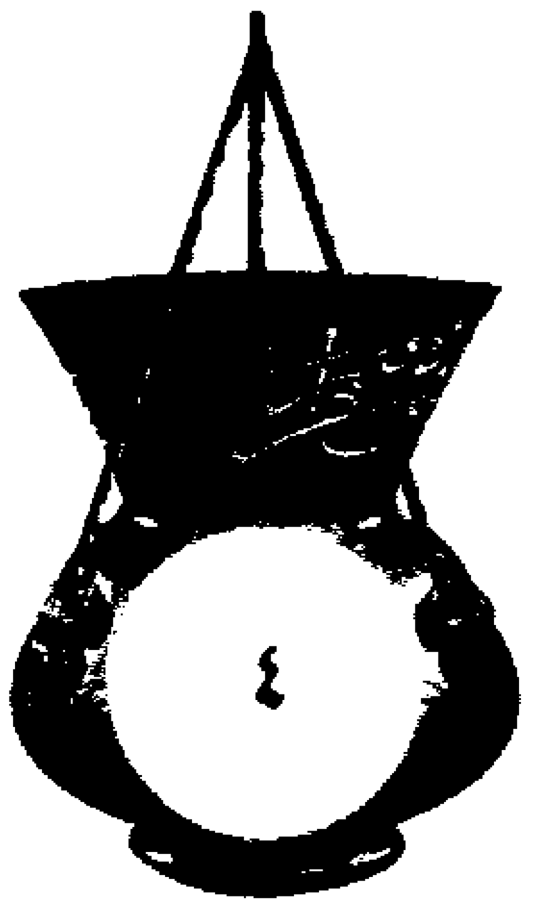

ولقد كثر استخدام الغلمان المماليك، بعد تربيتهم تربية دينية عسكرية، فى جيوش مختلف الدول الإسلامية فى العراق والشام ومصر، حتى ارتقوا فى سلم الجندية ووصلوا إلى مراتب عسكرية عالية وأصبحوا أرباب السلطنة والنفوذ فى شئون هذه الدول، فى شئون السياسة والعسكرية معاً.

وقد بدأ نفوذ هؤلاء المماليك يظهر فى مصر منذ عهد حكم الطولونيين والأخشيديين لها وخلال حكم دولة الفاطميين. وقد اتبع سلاطين الأيوبيين الذين حكموا مصر بعد الفاطميين، نفس السياسة فى الإكثار من شراء هؤلاء الرقيق الأبيض من المماليك واتخاذهم دعامةً لهم تدعم نفوذهم فى داخل البلاد وتدفع الأخطار الخارجية التى تهددهم من خارجها.

وقد نسبت مجاميع المماليك فى مصر إلى من قاموا بشرائهم، كل مجموعة منهم تنتسب إلى شاريها فانتسب من اشتراهم أسد الدين شيركوه، عم صلاح الدين إليه وعرفوا بالأسدية، أما الصلاحية فهم ينتسبون إلى صلاح الدين الأيوبى نفسه، والعادلية إلى العادل أخى صلاح لدين، والكاملية إلى الملك الكامل محمد بن أخى صلاح الدين، والصالحية إلى الصالح نجم الدين بن الملك الكامل، وهكذا.

وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب، قد استكثر من استخدام هؤلاء الغلمان المماليك فى جيشه وحرسه الخاص بعد أن تعرض لمؤامرات كثيرة من جانب أقاربه قبل وصوله إلى كرسى السلطنة، ولم يصل الصالح إلى السلطنة إلا بمساعدة هؤلاء المماليك. وكان الصالح قد اشترى أعداداً كبيرة من هؤلاء الغلمان الأتراك قُدر عددهم بألف مملوك من إقليم (خوارزم) وسماهم المماليك الصالحية، وأسكنهم قلعة جزيرة الروضة التى أنشأها لنفسه ولهم فى (بحر النيل) واتخذها سكناً له ولهم، فسُمى هؤلاء المماليك الصالحية باسم المماليك البحرية، تمييزاً لهم عن مماليك أُخر جاءوا بعدهم وسكنوا أبراج قلعة الجبل وعرفوا بالمماليك البرجية، والذين تولى سلاطينهم حكم مصر والشام والحجاز بعد انتهاء حكم سلاطين المماليك البحرية.

وقد أحرز سلاطين المماليك البحرية ثروات كثيرة وعاشوا فى رفاهية، وأنفقوا الكثير من المال على المنشآت الدينية والمؤسسات التجارية والمبانى المعمارية. يدل على ذلك كثرة أسماء المدارس والمساجد والحمامات والسبل والخانات التى تحمل أسماءهم. كذلك أصبح المماليك

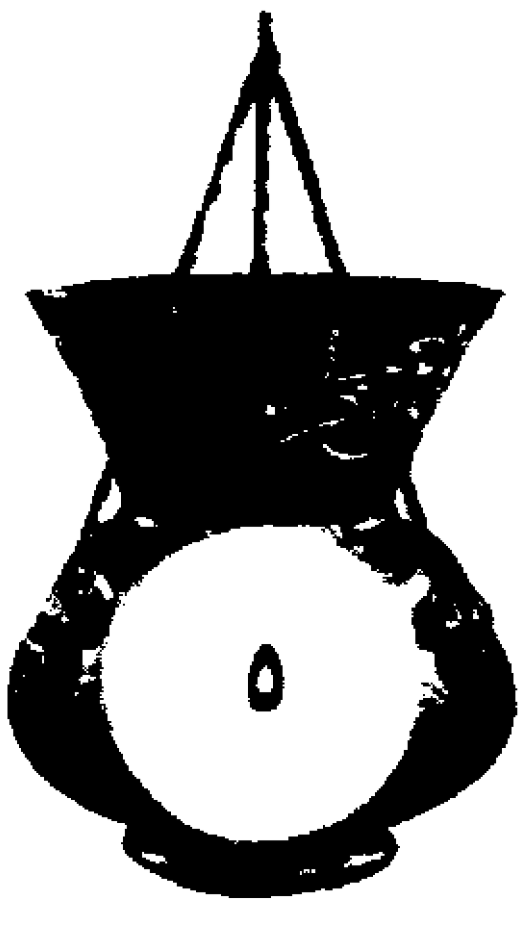

البـحرية مـصدر قلق ورعب لغـيرهم من طـوائف المماليك ولسكان القـاهرة، وكانت أفعالهم مثالاً للمساوئ الخطيرة التى اتصف بها حكم المماليك عموماً فى مصر والشام.

ورغم مساوئ وطغـيان واستبـداد حكام المماليك البحرية فـإنه يُذكر لهذه الفئة مـن المماليك وقوفهم وتصـديهم للأخطار الخارجية التى تعـرضت لها بلاد مصر والشام من جـانب الصليبيين والمغول، وقد أبلت جماعـة المماليك البحرية فى محاربة الصليبيين حين هاجموا ثغر دمـياط المصرى وكان لهم الفضل فى مساعدة المصريين فى هزيمة الصليبيين فى مـعركتْى فارسكور والمنصورة، فظهرت قوة هؤلاء المماليك البـحرية من وقتها واشتهر أمرها.

ولقد جاءت فرصة تولى المماليك البحـرية أمر السلطنة فى أعقاب وفاة السلطان الصالح نجم الدين أيوب، ذلك أنه لما مات الصالح ولم يكن له ولد ذكر يرث ملكه، تولت أمر مصر من بعده زوجته «شـجر الدر» لعدة أيام، ثم أرسلت إلى ابنه المعظم توران شاه، الذى كـان يقيم فى حصن كيفا،ليجىء ليتولى أمور البلاد. وبعد أن وصل تـوران شاه إلى مصر قام بالتضييق على زوجة أبيه شجر الدر ومـحاسبتهـا على تركة والده، وأظهر رغبـته فى الخلاص منها ومن أعـوانها من رجال المماليك البحرية. وكان الفارس (أقطاى) من أكابر المماليك البحرية وهو الذى أعان توران شاه فى حربه ضد الصلـيبيين الذين هاجموا سواحل مصـر غداة وصوله إليها وساعده فـى إيقاف زحفهم ودحره، وقـد وعده توران شـاه بولاية إحدى الإمـارات مكافأة له، إلا إنه لم يف بوعـده، الأمر الذى جعل أقطاى يتفق مع بقية قواد المماليك البحرية على قتله بإيعاز من شجر الدر.

وبعد مقتل توران شاه، آخر سلاطين الأيوبيين، أجمع قواد المماليك البحرية على أن يقيموا شجـر الدر- وهى مملوكة مثلهم - سلـطانة على مصر والشـام بعده، وأن يكون الأميـر عز الدين أيبك التركمانـى كبير قواد المماليك البحـرية مقدم العسكر. وتولت شجر الدر حـكم مصر والشام لمدة ثمـانين يوما، دبرت خـلالها أمـور البلاد، ووقّـعت على الكتب والمراسـيم باسم (أم خليل) ونقشت اسمها على السكة إلى جوار اسم الخليفة العبـاسى المستعصم بالله. وتعتبر شجر الدر أول امرأة تحكم مصـر والشـام فى تاريخ مصر الإسلامـية، وهى تعتبـر أيضـا أول حكام دولة المماليك البحرية. وقـد تزوجت شجر الدر من مقـدم العسكر عز الدين أيبك التركـمانى، وتنازلت له عن السلطنة بعد أن أرسل الخليفة العباسى نداءً إلى المصـريين يستنكر فيه أن تحكمهم امرأة وأرسل لهم من بغداد كتابًا يقرعهم فيه ويوبخهم على ذلك.

ولقد حكم سلاطين المماليك مصر والشام حتى الفتح العثمانى لهما لمدة ٢٧٤ عاما، حكم النصف الأول منها: المماليك البحرية (٦٤٨هـ-٧٨٤هـ/ ١٢٥٠-١٣٨٢م)، وحكم النصف الثانى منها: المماليك البرجية. الجراكسة ٧٨٤هـ-٩٢٢هـ/ ١٣٨٢-١٥١٦م).

خريطة دولة المماليك

ولقد تألف سلاطين دولة المماليك البحرية من ٢٥ سلطانا، كانت شجر الدر أولهم وكان الملك الصالح زين العابدين حاجى بن شعبان آخرهم وهو الذى تولى السلطنة لمدة عام واحد

(٧٨٣- ٧٨٤هـ/ ١٣٨١- ١٣٨٢م) وجـاء ترتـيب هؤلاء السـلاطين وسنى حكمهم كالتالى :

سلاطين المماليك البحرية	تاريخ تولى هجرى	تاريخ تولى ميلادى
١- السلطانة شجر الدر (أم خليل)	٦٤٨	١٢٥٠
٢- السلطان الملك المعز عز الدين إيبك التركمانى	٦٤٨-٦٥٥	١٢٥٠-١٢٥٧
٣- السلطان الملك المنصور على بن المعز	٦٥٥- ٦٥٧	١٢٥٧- ١٢٥٩
٤- الملك المظفر سيف الدين قطز	٦٥٧- ٦٥٨	١٢٥٩- ١٢٦٠
٥- الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى	٦٥٨- ٦٧٦	١٢٦٠-١٢٧٧
٦- السلطان السعيد ناصر الدين محمد بركة	٦٧٦-٦٧٨	١٢٧٧- ١٢٧٩
٧- السلطان الملك العادل بدر الدين سلامش بن الظاهر بيبرس	٦٧٨	١٢٧٩
٨- السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون	٦٧٨- ٦٨٩	١٢٧٩-١٢٩٠
٩- السلطان الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون	٦٨٩- ٦٩٣	١٢٩٠-١٢٩٤
١٠- الملك الناصر محمد بن قلاوون (السلطنة الأولى)	٦٩٣-٦٩٤	١٢٩٤- ١٢٩٥
١١- السلطان العادل زين العابدين كتبغا	٦٩٤-٦٩٦	١٢٩٥-١٢٩٧
١٢- السلطان حسام الدين لاجين المنصورى	٦٩٦-٦٩٨	١٢٩٧-١٢٩٩
- السلطان الناصر محمد بن قلاوون (السلطنة الثانية)	٦٩٨-٧٠٨	١٢٩٩- ١٣٠٨
١٣- السلطان ركن الدين بيبرس الجاشنكير	٧٠٨- ٧٠٩	١٣٠٨- ١٣٠٩
- السلطان الناصر محمد بن قلاوون (السلطنة الثالثة)	٧٠٩-٧٤١	١٣٠٩-١٣٤٠
١٤- السلطان المنصور سيف الدين أبوبكر	٧٤١-٧٤٢	١٣٤٠-١٣٤١
١٥- السلطان الأشرف علاء الدين كجك بن الناصر	٧٤٢-٧٤٣	١٣٤١-١٣٤٢
١٦- السلطان الناصر شهاب الدين أحمد على بن الناصر	٧٤٣	١٣٤٢
١٧- الملك الصالح عماد الدين إسماعيل	٧٤٣- ٧٤٦	١٣٤٢-١٣٤٥
١٨- الملك الكامل سيف الدين شعبان	٧٤٦- ٧٤٧	١٣٤٥- ١٣٤٦
١٩- الملك المظفر زين الدين حاجى	٧٤٧- ٧٤٨	١٣٤٦-١٣٤٧
٢٠- الملك الناصر ناصر الدين أبو المعالى	٧٤٨- ٧٥٢	١٣٤٧-١٣٥١
٢١- الملك الصالح صلاح الدين صالح	٧٥٢-٧٥٥	١٣٥١- ١٣٥٣
٢٢- الملك المنصور صلاح الدين محمد	٧٥٥- ٧٦٤	١٣٥٣- ١٣٦٢
٢٣- الملك الأشرف أبو المعالى شعبان	٧٦٤- ٧٧٨	١٣٦٢-١٣٧٦
٢٤- الملك المنصور علاء الدين على بن شعبان	٧٧٨- ٧٨٣	١٣٧٦- ١٣٨١
٢٥- الملك الصالح زين العابدين حاجى بن شعبان	٧٨٣- ٧٨٤	١٣٨١- ١٣٨٢

الفصل الأول
دولة المماليك البحرية

ولاية المماليك سلطنة مصر والشام:

بعد تنازل شجرة الدر عن السلطنة لزوجها عز الدين أيبك التركمانى، أقيم أيبك سلطانًا (آخر جمادى الأخرى سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م)، باسم الملك المعز، وبعد سلطنة المعز بخمسة أيام ثارت المماليك البحرية الصالحية وأرادوا أن يكون عليهم رجل من بنى أيوب سلطانًا يجتمع الكل على طاعته، وقد تزعم هذا الأمر من الأمراء المماليك البحرية الصالحية كل من: فارس الدين أقطاى، وركن الدين بيبرس البندقدارى، وسيف الدين بلبان الرشيدى، وشمس الدين سنقر الرومى، واتفقوا على أن يكون الملك المعز أتابكًا عليهم ووصيًا على السلطان، واختاروا الأشرف موسى، ابن الملك الناصر يوسف الأيوبى سلطانا عليهم، وكان صبيًا فى العاشرة من عمره، فأحضروه ونصبوه سلطانا وخطبوا له وجعلوا الملك المعز أتابكًا له.

ولقد نجح المعز أيبك فى القضاء على مناوئيه من أمراء المماليك البحرية، وبخاصة بعد التخلص من الأمير أقطاى بقتله سنة ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م، وخلع الملك الأيوبى الأشرف موسى، آخر حكام الأيوبيين فى مصر، واستقل بملك البلاد استقلالاً تامًا، ولم يزل المعز أيبك سلطانا على البلاد، بعد أن تخلص من مناوئيه، مدة سبع سنوات حتى لقى حتفه على يد مماليك زوجته شجر الدر فى ٢٣ من شهر ربيع الأول سنة ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م. وكان سبب قتله أنه أراد أن يتزوج على شجر الدر منَ ابنة الملك الرحيم صاحب الموصل، وكانت شجر الدر شديدة الحب له والغيرة عليه، فلم تتحمل ذلك وعملت على الخلاص منه بأمرها لخدمها بقتله، وهو فى الحمام وتنفيذهم لأمرها.

وخلف المعز فى السلطنة ابنه الملك المنصور على بن المعز أيبك، وكان يبلغ من العمر خمسة عشر عاما، وقد انتقم وأمه لمقتل أبيه من شجر الدر بقتلها فى الحمام (ضربًا بالقباقيب). ولم يستمر على بن أيبك فى السلطنة إلا سنتين وسبعة أشهر، وقد انتزعها منه أتابكه سيف الدين **قطز، الذى قام بنفيه هو وأمه خارج البلاد.**

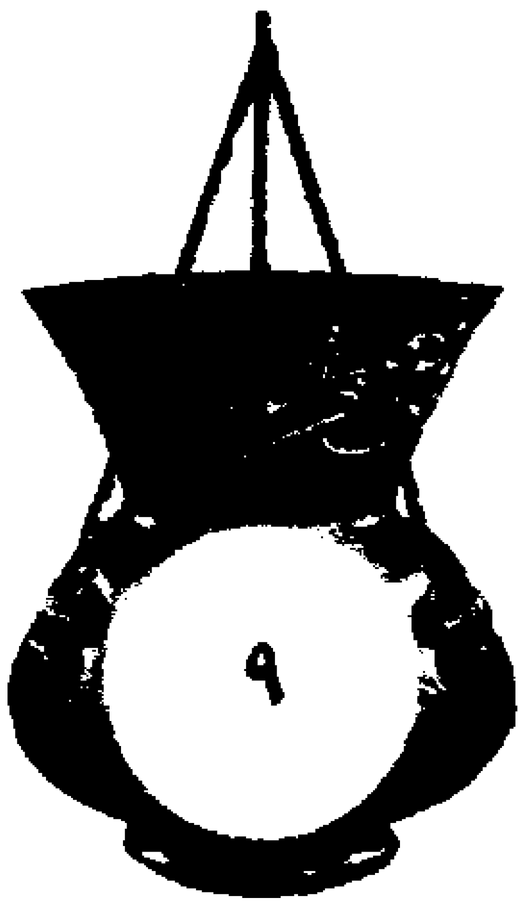

ومع تولى قطز السلطنة على مصر والشام، كان عليه أن يواجه خطرا داهمًا تعرضت له بلاد العالم الإسلامى وهو خطر هجمات جحافل المغول التى خرجت من بلاد منغوليا والصين كالجراد فى أعداد هائلة تبيد الأخضر واليابس وتدمر وتحرق كل ما يقابلها من زرع ومعمار، وتقتل وتسفك دم كل من يقابلها من نساء وأطفال ورجال. وكان خروج هؤلاء المغول التتار لغزو العالم بعد أن توحدوا تحت قيادة زعيمهم جنكيز خان، وقد أرسل قائده الشهير هولاكو خان يقود هذه الجحافل المتبربرة على بلاد الدولة الإسلامية، فاجتاحت أمامها بلاد ما وراء النهر (نهر سيحون) وبلاد فارس والعراق وسقطت فى يدها مدن سمرقند وتبريز وهرات وبخارى ونهاوند ومرو والموصل وغيرها من كبريات البلاد وخلفوها وراءهم خرابًا ودمارا، وحاصروا بغداد عاصمة دولة الخلافة وأسقطوها فى أيديهم بعد أن أشاعوا فيها الحرق والتدمير والتخريب وقتلوا الخليفة العباسى المستعصم بالله، فى شهر صفر سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م. وتوغلت هذه القوات المدمرة فى بلاد العراق والشام واستولت على غالبية بلاد الشام من حلب إلى غزة وأعملت فيها الخراب والقتل والدمار وأوقعت الرعب والفزع فى قلوب أهلها، فقُتل منهم منْ قتل وهام على وجهه من لاذ بالفرار إلى الصحراء وأوكار الجبال. وبات الخطر يتهدد مصر حين وصلت أعداد هائلة من هذه الجماعات إلى حدودها.

ولم يلبث أن وصل إلى السلطان سيف الدين قطز بمصر خطاب تهديد من هولاكو يطلب منه فيه الاستسلام، ويقول له فيه ما نصه: «ليعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته، وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال، إنا نحن جند الله فى أرضه، خلقنا من سخطه وسلطنا على من حل به غضبه.. فاتعظوا بما حل بغيركم فنحن لا نرحم من بكى ولا نرق لمن شكى».

ولكن قطز لم ينثن أمام ذلك التهديد، وقام بقتل رسل هولاكو وعلق رؤوسهم على باب زويلة، أحد أبواب القاهرة الرئيسية رافعًا راية التحدى.

ولما وجد قطز ترددًا من بعض أمراء المماليك البحرية فى الخروج لملاقاة المغول بسبب السمعة السيئة التى سبقتهم إلى الناس، صاح فيهم محفزاً لهم قائلاً: «يا أمراء المسلمين! لكم زمان تأكلون أموال بيت المال وأنتم للغزو كارهون؟ أنا متوجه فمن اختار الجهاد فليتبعنى ومن لم يختر ذلك فليرجع إلى بيته وأهله فإن الله مطلع عليه وإن خطيئة حريم المسلمين فى رقاب المتأخرين».

١٠

موقعة عين جالوت:

وفى تلك الأثناء عاد هولاكو إلى بلاده وترك وراءه قائده (كتبغا) نائبًا عنه فى الشام وقائدًا للجيش المتوجه لغزو مصر، وعندما علم كتبغا بوصول قطز على رأس الجيش المصرى إلى أرض فلسطين من بلاد الشام قرر محاربة المسلمين، فاتجه صوب قرية عين جالوت، ما بين بيسان ونابلس، ودارت هنالك معركة رهيبة بين الجانبين المغولى والإسلامى يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة ٦٨٥هـ/ سبتمبر ١٢٦٠م؛ تفوق المغول فى بداية اللقاء لكن القائد قطز ثبت فى ميدان القتال وأخذ يحث جنده على الاستبسال فى القتال والفوز إما بالنصر أو الاستشهاد.

وقيل إنه لما اشتد وطيس المعركة ألقى قطز بخوزته عن رأسه إلى الأرض وصاح مناديًا:

«وا إسلاماه.... وا إسلاماه»، وحمل هو ورجاله على العدو فقتلوا منهم عددًا كبيرًا، وكان كتبغا القائد ضمن القتلى وكثير من رجاله، ولما رأى الناجون ما حل بقائدهم لاذوا بالفرار وولوا الأدبار.

ولا شك فى أن موقعة عين جالوت تعد من أهم المواقع فى التاريخ الإسلامى، بل أهمها على الإطلاق، ذلك لأنها كانت مفرق طرق فى تاريخ الإسلام وأنها أوقفت المد المغولى الذى

معركة عين جالوت

استهدف الإسلام والمسلمين، وأنها كانت نقطة تحول خطيرة فى تاريخ العالم الإسلامى، وأنها كانت بداية النهاية لطغيان المغول وبداية الاندحار للشعب الذى وصفه زعيمه هولاكو «بأنه شعب لا يقهر»، ولقد قُهروا فى عين جالوت وأنقذت مصر والشام من خطرهم وتبعهم العراق فى ذلك.

وإذا كان المغول قد استمروا، بعد ذلك يهددون الشام فإن تهديدهم، بعد دحرهم فى عين جالوت، لم يتخذ شكل الغزوات الكاسحة المدمرة، كما كان الحال من قبل، ولكنه اتخذ طابع الإغارات المتقطعة التى تنتهى بالانسحاب السريع عندما تخرج الجيوش الإسلامية من مصر للقائهم. وقد نجح السلطان قطز، بعد المعركة، فى استرداد دمشق ومعظم بلاد الشام من أيدى المغول، فى حين قام الأمير بيبرس البندقدارى بتتبع فلول المغول ومطاردتهم حتى حلب. وتمكن قطز من تطهير بلاد الشام من دنس المغول وإعادة الحياة فيها إلى مجراها الطبيعى، وإعادة أمراء بنى أيوب إلى ولاياتهم فى حمص وحماة واعترافهم بتبعيتهم لسلطنة المماليك وتعهدهم بدفع جزية سنوية للسلطان قطز والدعاء له من فوق منابر مساجدهم.

وكان الانتصار فى مصر عظيمًا فقد عم الفرح والسرور البلاد والعباد فدقت الطبول فى القلعة وأقيمت الزينات فى جميع أنحاء القاهرة. ولبست العاصمة أبهى حللها استعدادًا لاستقبال السلطان سيف لدين قطز بطل الانتصار على المغول، ولكن قطز عاد إلى القاهرة محمولاً على

جامع الظاهر بيبرس - الواجهة الشرقية

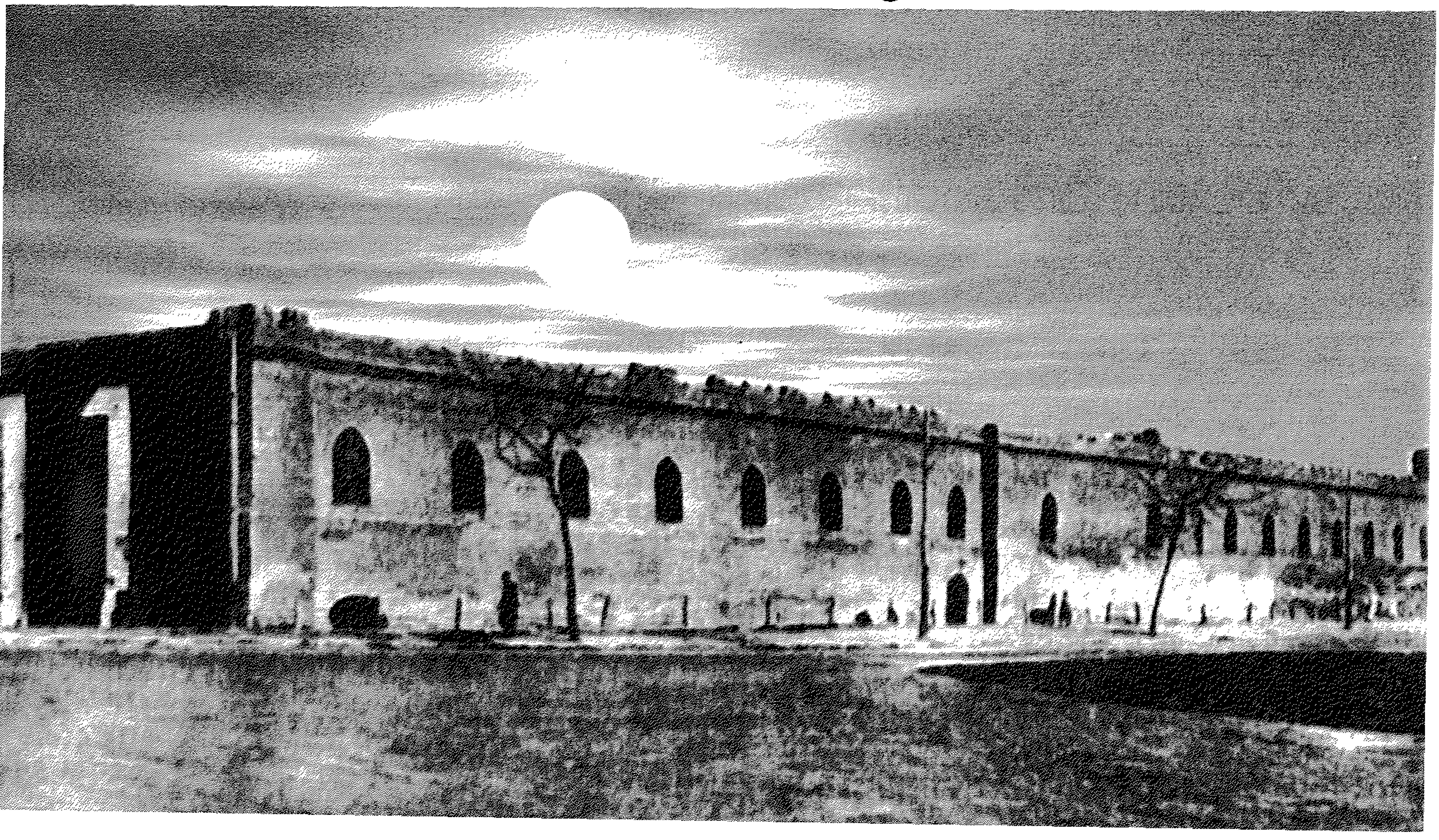

الأعناق قتيلاً بعد أن قُتل غدرا وهو فى طريق عودته إليها وهو يحمل إكليل الغار، قتله قائده بيبرس البندقدارى لتنكره بوعده له بإعطائه ولاية حلب وإعطائها بدلاً منه لابن بدر الدين لؤلؤ.

ويحكى المؤرخ المقريزى قصة اغتيال بيبرس لقطز بقوله:

«احترس كل منهما من الآخر واتجه الاثنان فى موكب واحد إلى مصر، ويقال أن بيبرس حدَّث جماعة من الأمراء فى قتل السلطان المظفر قطز، فأقروه على ذلك وأخذوا يترقبون الفرصة المناسبة لتنفيذ مؤامرتهم وعندما اقترب الجمع من الصالحية انصرف قطز إلى الصيد ـ صيد الأرانب ـ فثارت أرنبة وجمحت وعندئذ نسى قطز أن يحترز على نفسه وتعقب الأرنبة حتى ابتعد عن رفاقه، وكان أن استغل المتآمرون الفرصة فتبعوا السلطان حتى لم يبق معه غيرهم، وعندئذ تقدم بيبرس من السلطان يطلب طلبا فأجابه قطز إلى طلبه فتظاهر برغبته فى تقبيل يد السلطان ولكن لم يكد قطز يمد يده حتى قبض عليها بيبرس بشدة ليحول بينه وبين الحركة فى حين هوى عليه بقية الأمراء بسيوفهم حتى أجهزوا عليه». وقد جاءت نهاية بطل عين جالوت المأساوية فى ١٧ ذى القعدة سنة ٦٥٨ للهجرة، بعد حكم دام لعام واحد.

السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى:

تولى السلطنة من بعد السلطان قطز السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقدارى والذى حكم مصر والشام مدة سبعة عشر عاما، وتوفى فى دمشق سنة ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م. وكان بيبرس من أعظم سلاطين المماليك البحرية، بل أعظم سلاطين المماليك على الإطلاق، وهو يعتبر المؤسس الحقيقى لدولتهم فى مصر والشام لما قام به من تنظيم الإدارة الحكومية واستحداث الكثير من الوظائف الهامة فى مصر والشام، فضلاً عن إعداده جيشًا قويًا وأسطولاً كبيرًا ليحارب به أعداء الدولة من مغول وصليبيين.

ومن أهم الأعمال التى قام بها السلطان بيبرس إحياؤه الخلافة العباسية فى مصر بعد سقوطها ونهايتها فى العراق، ومبايعة المستنصر بالله أحمد بن الظاهر، ابن الناصر العباسى، أحد أقرباء المستعصم بالله، بالخلافة ونقل مقر الخلافة من بغداد إلى القاهرة سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م. وقد استهدف بيبرس من وراء ذلك اعتراف الخليفة الجديد بشرعية حكمه، وهو مملوك لمصر والشام وكسب المماليك الشرعية فى حكمهم من الخليفة. كذلك استحدث بيبرس نظام ولاية العهد فى دولة المماليك، فورَّث عرش سلطنة مصر، بناءًا على ذلك اثنين من أبنائه من بعده وهما: السعيد بركة خان، ثم العادل بدر الدين سلامش.

١٣

ولقد حارب بيبرس الصليبيين وكذلك حارب المغول.

أما بصدد حربه للصليبيين فقد واصل بيبرس حروب الأيوبيين ضدهم، وقد تجددت الحرب بين المسلمين والصليبيين برغم الهزيمة الساحقة التى سبق أن لحقت بهم، وبقائد حملتهم بقيادة الملك الفرنسى «لويس التاسع» الذى أسر فى معركة فارسكور وسُجن فى دار القاضى ابن لقمان بمدينة المنصورة. وقد فك هذا الملك أسره بعد أن افتدى نفسه بمبلغ كبير من المال وبعد أن وافق على الانسحاب من ثغر دمياط دون شروط.

وقد اتجه هذا الملك، بعد فك أسره، إلى عكا حيث حاول الانتقام لما وقع له فى المنصورة وفارسكور وبعد أن قضى لويس التاسع أربع سنوات بمدينة عكا يجهز خلالها حملة صليبية جديدة ضد مصر إلا إنه لم يفلح فى ذلك وعاد إلى بلاده فرنسا بخُفى حنين يجر أذيال الخيبة سنة ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م، دون أن يحقق مطامعه وذون أن يثأر لكرامته مما وقع له على يد المسلمين.

وجاء رد فعل بيبرس بقيادة حملاته ضد الصليبيين، بعد أن تخلص من مشاكله الداخلية فأغار على مدن قيسارية وحيفا وأرسوف واستولى عليها واستخلصها من أيديهم سنة ٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م. وفى العام التالى استولى على مدينة صيدا الساحلية ويافا وأرمينية الصغرى. وكان أكبر انتصار لبيبرس على الصليبيين حين نجح فى إسقاط إنطاكية فى يده، وقد كانت أقوى الإمارات الصليبية المتبقية بالشام، سنة ٦٦٧هـ/ ١٢٦٨م، بعد إحكام الحصار عليها لعدة شهور، وكان لسقوط إنطاكية فى يد بيبرس أثر هام فى كسر شوكة الصليبيين عمومًا.

ولم يكتف بيبرس بمحاربة الصليبيين فى البر وحسب، بل حاربهم أيضًا فى البحر، فاستولى على جزيرة قبرص التى كانت خاضعة لبيزنطة وتقوم بإرسال الإمدادات للصليبيين. وقد أراد بيبرس باستيلائه على هذه الجزيرة أن يعزز مكانة الأسطول الإسلامى فى البحر المتوسط وأن يحول هذا البحر من بحيرة رومية إلى بحيرة إسلامية.

وأثناء حربه مع الصليبيين وجد بيبرس ضرورة القضاء على نفوذ جماعة الباطنية الإسماعيلية (الحشاشين) فى بلاد الشام. وكانت هذه الجماعة قد قامت بدور خطير فى تاريخ الحروب الصليبية بمحالفتهم للصليبيين وإظهار تبعيتهم لهم ومساعدتهم لهم، فقام بيبرس بالاستيلاء على جميع حصونهم وقلاعهم بالشام وأراح المسلمين من شرهم وإفسادهم.

أما عن حرب بيبرس مع المغول فإننا نرى بيبرس يقوم بمحاربة مغول فارس دون بقية المغول. وكان المغول على عهد بيبرس قد انقسموا إلى معسكرين: معسكر معادٍ، وهم مغول فارس،

ومعسكر مسالم وهم مغول القبجــاق الذين عرفوا (بالقبيلة الذهبية)، فى المنطقة شمال بحر قزوين والبحر الأسود.

هذا ولم يكن مـغول فــارس قد نسـوا ما حــل بهم من هزيمة فى عـين جالوت وكانوا قـد ارتدوا مؤقتًا إلى مـا وراء الفرات على أمل تجميع صــفوفهم واستعــادة قوتهم ومعاودة هجومهم عــلى بلاد الإسلام؛ لذلك تكررت إغارتهم على بلاد الشام من حيـن لآخر طوال عصر حكم المماليك. وقـد حاول المغول إقامة جـبهة موحـدة مع الصليبيين ضد المسلمـين لكن الظاهر بيبرس نجح فى إفـشال هذا المشروع الصليبى المغولى، بعقده تحالفًا مضادًا مع مغول الـقبجاق. وقد ساعد فى إتمام هذا التحالف بينهما اعتناق الملك القبجاكى (القبجاقى) بركة خان لدين الإسلام. وتأكدت أواصر التحالف بين الجانبين المملوكى والقبـجاقى بزواج الظاهر بيبرس من ابنة الملك بركـة خان. وأصبح التحــالف بين مصر المملوكية ومغـول القبجاق، منذ ذلك الوقت، ركنًا تقليديًا من أركان سياسـية دولة المماليك بمصر والشام، وقد ساعد هذا التحالف فى وقوف سلاطين المماليك موقفًا حازمًا من مغول فارس.

وفى سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م هاجم مغول فــارس بلدة البيرة الفلسطينية وحاصـروها، فسارع بيبرس على رأس قواته لفك الحصار عنها فهرب المغـول فاكين الحصار عنها بمجرد أن شعروا بمقدم بيـبرس. وبعـد موت كـبيـر مغـول فارس هولاكـوخان فى نفـس العام، خلفـه على الحكم ابنه (أبغاخان) الذى أرسل غـداة تسلمه الحكم، فى طلب مصالحـة بيبرس. لكن بيبـرس لم يجبه إلى ذلك بسبب إساءات مـغول فارس المتكررة لدولة الإسلام، فـرد الملك المغولى على أثر الرفض من جانب بيـبرس بمحاولة إقـامة حلف صليبى مـغولى ضد المسلمـين وإرسال جيش مـشترك منهـما لحربهم. وقام المغول آنذاك بعدة غارات على مدينة حلب، فتصدى لهم بيبرس بقواته وردهم عنها وأمنَّها من خطرهم واسـتمرت هذه المناوشـات قائمة بين الطرفـين الإسلامى والمغولى حـتى وفاة بيبرس سنة ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م.

ولقد حدثـت فترة اضطرابات كبـرى فى الدولة المملوكية عقب وفـاة بيبرس اسـتمرت مدة عامـين كامليـن، فقـدت خـلالها البـلاد الأمن والأمان الذى كـانت تتمـتع به فى عهـده، وساد الاضطراب وعمت الفوضى البلاد، الأمر لذى أطمع فيها الأعداء من صليبيين ومغول. وقد تولى حكم البلاد فى هذين العامـين اثنان من أبناء بيبرس؛ واحد منهـما بعد الآخر؛ هما محـمد بركة خان ثم بدر الدين سلامش.

وقد انتهز مغول فارس فترة الضعف هذه التى أصابت الدولة فهاجموا أملاكها وحاولوا القضاء عليها والثأر لهزائمهم منها، فهاجموا مدينة حلب وأحكموا الحصار حولها وكادوا أن يسقطوها فى أيديهم لولا أن الله تعالى أنقذ البلاد وأزاح عنها هذا البلاء وذلك بأن بعث لها من يخلصها من عدوان المغول وهو القائد المظفر الحكيم السلطان المنصور سيف الدين قلاوون الذى تولى السلطنة سنة ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م.

السلطان سيف الدين قلاوون (٦٧٨هـ - ٦٨٩هـ/ ١٢٧٩ - ١٢٩٠م):

هو السلطان الملك المنصور سيف الدين أبو الفتح قلاوون بن عبد الله الألفى التركى الصالحى النجمى، السابع من سلاطين المماليك البحرية، وهو أحد رجال المماليك البحرية اشتراه علاء الدين آقسنقر بألف دينار، فعرف بالألفى.

ولما مات الأمير علاء الدين انتقل قلاوون إلى حيازة الملك الصالح نجم الدين أيوب، فأضيف لقب الصالحى النجمى إلى لقب الألفى. وسرعان ما أخذ نجم قلاوون فى الصعود فى الأحداث التى صحبت قيام دولة المماليك، إذ كان أحد زعماء البحرية البارزين، وخاصة فى عهد السلطان الظاهر بيبرس الذى اعتمد عليه كثيرا فى أعماله السلمية والحربية، ولما لحظ بيبرس ازدياد نفوذ قلاوون وسطوع نجمه وعظم مكانته بين قادة المماليك البحرية تخوف منه أن يطمع فى عرش البلاد فى حياته أو بعد مماته، وكان بيبرس قد جعل ولاية العهد من بعده، كما أسلفنا، لابنيه بركة ثم سلامش.

مدرسة ومسجد السلطان قلاوون

وحتى يضمن بيبرس ولاء قلاوون لما خطط له من ولاية العهد لجأ بيبرس إلى حيلة ذكية ظن أنها تضمن بقاء السلطنة من بعده لأبنائه فقام بتزويج ابنه بركة من ابنة قلاوون سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م. ولكن هذه المصاهرة وهذا الزواج السياسى لم يوقف تطلعات قلاوون للوصول إلى الحكم. فلم يكد بيبرس يفارق الحياة حتى أخذ قلاوون يدبر لذلك مع حرصه على عدم كشف مطامعه، وقد نجح قلاوون، بفضل حرصه وذكائه، أن ينفذ أطماعه بتدرج بطيء. فلما تولى بركة السلطنة، ولم يكن كفئًا لها واشتد حصار الأمراء له ومطالبتهم عزل نفسه، لم يتدخل قلاوون فى الأمر إلا بتقديم النصح لزوج ابنته بالتنازل على إرادة أمراء المماليك البحرية. ولم يكن أمام بركة سوى الإذعان لمشورة حميه بالتنازل عن السلطنة لأخيه بدر الدين سلامش، الطفل الذى لم يكن قد تجاوز السابعة من عمره. وكان فى إمكان قلاوون أن يعتلى عرش السلطنة آنذاك ولكنه أمعن فى التظاهر بعدم الرغبة فى ذلك ووافق على تولى سلامش السلطنة بعد أخيه على أن يكون هو أتابكًا له. وبالفعل تم ذلك وصار هو -وهو فى منصب أتابك العسكر- السلطان الحاكم الفعلى فى البلاد وأخذ قلاوون يمكن لنفسه خلال فترة الوصاية القصيرة على السلطان الطفل بإحسانه وإغداقه الأموال على زملائه من أمراء المماليك البحرية الصالحية واستمالتهم إلى جانبه، وبتخلصه من بعض الأمراء المنافسين له فى منصب السلطنة، ومن عدد كبير من المماليك الظاهرية مماليك الظاهر بيبرس.

ولما استوى الأمر لقلاوون دعا الأمراء وتحدث معهم فى عزل سلامش وتوليه السلطنة سنة ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م. ولقد أجمع المؤرخون الذين أرخوا لدولة المماليك ولتاريخ مصر الإسلامية عمومًا، بوصف السلطان المنصور قلاوون بأطيب الصفات، فمنهم من وصفه بالحلم، وعدم الميل لسفك الدماء والبعض الآخر وصفه بالمهابة والشجاعة وطيب الأفعال والخصال. وفى ضوء هذه الخلال الحسنة التى توافرت فى هذا السلطان فسر المؤرخون استمرار الحكم فى بيته مدة قرن من الزمان - «أن الله تعالى أكرمه فى ذريته وبارك له فيها وجازاه بالحسنة على كريم خصاله وعظيم أفعاله».

ولقد واجه قلاوون صعابًا كثيرة فى بداية حكمه، استطاع بفضل شجاعته وحسن سياسته وسلاسة قيادته التغلب عليها، فتعرض للثورات الداخلية من قِبل أمراء المماليك المنافسين له وبخاصة المماليك الظاهرية، وقد جعله الموقف المعادى من جانب المماليك الظاهرية يفكر جدياً فى أن ينشى لنفسه عصبة جديدة من المماليك يعتمد عليها فى مواجهة الخطر فى الداخل والخارج. من أجل ذلك قام قلاوون بشراء أعداد كبيرة من المماليك وأنشأ منهم فرقة جديدة أسكنهم أبراج القلعة

ولذلك عرفوا باسم المماليك البرجية، وهم الذين سيحكمون مصر بعد أن يرثوا دولة المماليك البحرية. وكان الأمير شمس الدين سُنقر الأشقر نائب دمشق والشام، من أوائل المنشقين على السلطان قلاوون والرافضين لحكمه ومن غير الراضين على خلع قلاوون لسلامش عن السلطنة وقد قام سنقر بالاستيلاء على قلعة دمشق وأعلن استقلاله بالممالك الشامية، ثم وجه العساكر يوم الأربعاء التاسع والعشرين من شهر ذى القعدة سنة ٦٧٨ للهجرة إلى غزة لدفع أى قوات مصرية يوجهها إليه قلاوون من مصر. وكان على قلاوون أن يواجه غزو سنقر فأعد جيشا كبيرا سار به إلى غزة وقاتل هناك عسكر سنقر وهزمها ، واستولت القوات المصرية على قلعة دمشق بعد أن هرب سنقر منها إلى جبل صهيون. ودخل قلاوون دمشق ثم ترددت الرسل بين السلطان وسنقر فى تقرير قواعد الصلح بينهما بعد أن جنح سنقر للسلم واعترف بسلطنة قلاوون.

وبينما السلطان فى ذلك ورد عليه مجىء التتار إلى البلاد الشامية وهو بدمشق، فتهيأ لقتالهم وأرسل بطلب العساكر المصرية التى ما لبثت أن جاءته دمشق واجتمعت عنده، ولم يتأخر أحد من التركمان والعربان وسائر الطوائف. ووصل الخبر للسلطان قلاوون بوصول مغول فارس إلى أطراف حلب فخلت حلب من أهلها الذين نزحوا إلى جهة حماه وحمص. وجاء سنقر الأشقر بقواته ليعاون قوات السلطان ضد المغول الذين جاءوا فى أعداد كبيرة قدرت بما يزيد عن المائة ألف يقودهم منكوتمر بن هولاكو، الذى تولى حكم مغول فارس بعد موت أبيه هولاكو. وكان عدد عسكر المسلمين يقل عن نصف عدد عسكر المغول، والتقى الجمعان بظاهر حمص، وثبت السلطان قلاوون فى ميدان القتال وأبدى شجاعة فائقة فى ملاقاة العدو، وانتهت المعركة بهزيمة المغول وقتل قائدهم وقتل أعداد كبيرة منهم وهروب الباقين تجاه حلب والفرات.

وكتبت البشائر بهذا النصر العظيم إلى سائر البلاد، وحصل للناس السرور والفرح الزائد وزينت المدن والقلاع بأبهى زينة، وعاد السلطان إلى دمشق بعد المعركة يوم الجمعة ٢٢ من شعبان. «وخرج الناس إلى ظاهر البلد للقائه، فدخل دمشق وبين يديه جماعة من أسرى التتار وبأيديهم رماح عليها رؤوس قتلاهم فكان يومًا مشهودا» وأقام السلطان بدمشق إلى ثانى شهر رمضان من العام نفسه وخرج عائدًا إلى الديار المصرية وخرج الناس للقائه وقد تضاعف سرورهم بسلامته وبنصر المسلمين على العدو المخذول.

وفى أول سنة ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م تولى سلطنة مغول فارس تكودار بن هولاكو بعد وفاة أخيه

أبُغا، وقد اعتنق تكودار الإسلام فى حياه أبيه وتسمى أحمد وعرف بأحمد تكودار وكان أحمد يبلغ من العمر الثلاثين. وحاول أحمد، بمجرد توليه الحكم، التصالح مع دولة المماليك؛ لكن قواده من رجالات مغول فارس رفضوا ذلك وقاموا باغتياله وتعيين ابن أخيه (أرجون) الوثنى مكانه فى الحكم وذلك سنة ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م. وكان أرجون يكره المسلمين كراهية شديدة وقام بقتل أعداد كبيرة منهم فى البلاد التى كانت تحت حكمه الأمر الذى أدى إلى شدة معاداة سلاطين المماليك له. ويعتبر أرجون هذا هو مؤسس دولة المغول الإيلخانية المعادية لدولة المماليك الإسلامية، وقد ظلت هذه الدولة لوقت طويل على حرب مستمرة مع عدد كبير من سلاطين دولة المماليك البحرية.

قلاوون والصليبيون

هذا عن حرب قلاوون مع المغول أما حربه مع الصليبيين فقد بدأت حين استغل الصليبيون فرصة انشغال السلطان فى حربه مع المغول وحاولوا استرداد حصن الأكراد من يد المسلمين، لكن محاولتهم باءت بالفشل بسبب متانة هذا الحصن واستبسال الحامية التى به فى الدفاع عنه. وقد نبه هذا الهجوم المشترك من جانب المغول والصليبيين على بلاد العالم الإسلامى إلى ضرورة اتباع القيادة الإسلامية لسياسة التفريق بينهما وعدم تمكينهما من التوحد ضده حتى تتمكن هذه القيادة من ملاقاة

مبانى المماليك امتدت إلى القدس

كل منهمـا على حدة وبناءً على ذلك فـقد قام السلـطان قلاوون سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م، بعقـد صلح مع القـوى الرئيسيـة فى بلاد الشام، وهم رجـال الداوية والاسبتـارية وأمير طرابلس، وأوقف هذه القـوى على الحياد حتى يتـفرغ لمنازلة المغول وعقب انتصار قلاوون على المغول فى حمص توجه بقواته لمهاجمة حصن المرقب، أقوى الحصون الصليبية بالشام ونجح فى الاستيلاء عليه مما سبب خسارة جسيمة للصلـيبيين. كذلك انتهز قلاوون فرصة تنازع أمـراء الصليبيين فى الشام فيما بينهم واستـولى على اللاذقية سنة ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م، وعلى طرابلس سنة ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م. ولم يلبث المسلمون أن استولوا على بيروت، وجبلة، وهما من المراكز التى أخذها الصليبيون قرب طرابلس، وبذلك لم يتبق للصليبيين فى بلاد الشام سوى عكا، أعظم المدن الصليبية وأمنعها آنذاك بعد سقـوط بيت المقدس فى يد المسلمين، وبعد أن صارت هى المركـز الجديد لمملكة بيت المقدس الصليبية.

حكم أسرة قلاوون:

لم يأخذ حكم دولة الممـاليك بنظام الوراثة فى الحكم باستـثناء ما حدث فى أسـرة قلاوون التى ورثت الحكم عن عـاهلها قـلاوون حتى نهاية دولة المـماليك البحـرية سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م ولمدة قرن من الزمان. ويمثل العـصر الذى حكمت فيه أسرة قلاوون مصـر والشام عصر الازدهار فى عـهد حكم دولة الممـاليك بعد أن انتـهت مرحلة التـأسيس للـدولة التى تمت على يد الظاهر بيبرس، وبعد أن أثبت سلاطين المماليك مقدرتهم على حكم البلاد وعلى مواجهة الأخطار الكبرى التى هددت مصـر والشام من جانب المغـول والصليبيين. وليس هنـاك من شك فى أن الفضل فى استمرار هذا البيت فى حكم البلاد يرجع إلى شـخص السلطان المنصور قلاوون نفسه الذى استطاع أن يرسى هيبـة بيته فى النفـوس وإحاطة هذا البيـت وتتويجه بالمجـد والعظمة وجعله رمـزًا للقوة والتقدم والاستقرار فى الداخل، والأمن والأمان فى الخارج.

وكان السلطان قـلاوون قد أعلن إبنه الأكبر عـلاء الدين سلطانًا فى حياته بموافـقة الأمراء، وجـعل ولاية العهـد، من بعـده لابنه الثـانى خليل، لكن عـلاء الدين توفى فى حـياة أبيـه سنة ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م، فانتقلت السلطنة بالتالى إلى خليل عقب وفاة أبيه دون أن ينازعه فيها أحد، لا سيـما أن الموقف فى البلاد آنذاك كان يتطـلب تولى سلطان جديد عرش السلطنة بأسـرع ما يمكن ليقود الحملة التى كان قلاوون قد أعدها قبل وفـاته لاستخلاص عكا من يد الصليبيين. وقد أقسم الأمـراء يمين الطاعـة للسـلطان خليل الذى لقب بالأشـرف وذلـك سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م، وبدأ

السلطان الأشرف خليل، بعد توليه عرش السلطنة الاستعداد للخروج بهذه الحملة.

السلطان الأشرف خليل بن قلاوون:

وبعد أن تخلص الأشرف خليل من العقبات المعتادة آنذاك التى تقابل كل سلطان مملوكى فى بداية حكمه من ثورات داخلية أو تطلعات للحكم من جانب سائر الأمراء المماليك المنافسين، توجه على رأس جيشه قاصدا تحرير عكا من يد الصليبيين. وعندما تيقن قادة الصليبيين من خلوص أمر الحكم للسلطان خليل، أرسلوا إليه سفارة من عندهم يسألونه العفو عنهم وعدم محاربتهم لكن لسلطان أصر على خطته، وسار بجيوشه المصرية والشامية متجهًا إلى عكا سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م، وبدأ بحصار المدينة ثم والى رميها بالمنجنيق رميا متواصلا، وكان السلطان قد نصب عليها ٩٢ منجنيقا تتناوب الرمى عليها.

وقد بذل الصليبيون جهدًا مستميتًا فى الدفاع عن عكا، آخر قلاعهم ببلاد الشام دون جدوى. ونجح رمى المنجنيق فى نقب سور المدينة فاقتحمت جيوش المسلمين المدينة سنة ٦٩٠هـ/ ١٨ مايو ١٢٩١م، وقُتل من قتل من أهل المدينة وأُسر من أُسر وفر من استطاع الفرار من الصليبيين فى السفن إلى عرض البحر، وغرقت سفن كثيرة من السفن التى فروا إليها بسبب زيادة تحميلها.

وبعد سقوط عكا، سارت القوات الإسلامية فى الأشهر التالية للفتح لإجلاء القوات الصليبية من بقايا مدن الساحل السورى التى كانت لا تزال فى أيديهم؛ فاستولت هذه القوات على مدن صور وصيدا وحيفا، وبذلك قطع دابرهم عن الشام ودالت دولتهم فيه وأزيل الدنس الصليبى من أرضه.

ومع أن القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى، قد انتهى بتصفية الوجود الصليبى الاستعمارى نهائيًا من بلاد الشام إلا أن القرون التالية لهذا القرن شهدت رد فعل صليبى عنيف باستخدام سلاح آخر غير أسلحة القتال المعهودة، وهو سلاح الحرب الاقتصادية ضد العالم الإسلامى، واستخدام سلاح المقاطعة الاقتصادية ومنع الاتجار مع بلاد هذا العالم، وحرمانه من قوته الاقتصادية التى هى سبب قوته العسكرية وقد خُيل لقادة الصليبيين أن حرمان مصر من ثرائها الاقتصادى سوف يؤدى حتما إلى ضعفها العسكرى، وبالتالى يؤدى إلى هزيمتها قتاليًا، وبذلك يتيسر لهم عودة الاحتلال الصليبى لبلاد الشام واستعادة بيت المقدس من يد المسلمين.

غير أنه لم يُكتب لهذه الدعوة النجاح فى العصر المملوكى، ذلك لغلبة المصالح الخاصة عند حكام الدول الأوربية على الوازع الدينى. فلقد رفضت المدن الإيطالية التجارية وهى مدن جنوه

وبيزا وأمالفى والبندقية، هذه الدعوة لأن هذه المدن كانت تستفيد استفادة عظيمة من المشاركة فى تجارة الشرق العالمية التى كان المسلمون يحتكرون طريقها آنذاك. وقد نجحت الدولة المملوكية فى إفشال الدعوة لهذه المقاطعة الاقتصادية التى دعى إليـها بابا رومـا ورجال الكنيـسة الكاثوليكيـة، وذلك بتـقديمـها التـسهـيلات والامتـيازات لـتجار أوربـا الوافدين على بلادهم مـؤكدين ذلك فى المعـاهدات والاتفاقات التجارية التى عقدوها مع دولهم وحكوماتهم، كذلك بالمعاملة الطيبة التى كانت تعامل بها التجار الأجانب أثناء إقامتهم أو مرورهم بالبلاد الإسلامية.

هذا ولم تتوقف حروب السلطان الأشرف خليل على الجبهة الصليبية، ولكنها شملت جبهة المغول أيضا وقـد قام هذا السلطان سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م بالإغارة على بلاد المغول وحـاصر قلعة الروم، معقل نشـاطهم، واستولى عليهـا، وكان ذلك فى عهد غازان الذى حـكم بلاد المغول بعد موت سابقه أرجون.

على أن هذه الانتصارات الكبرى التى أحرزها السلطان الأشرف خليل على الصليبيين وعلى المغول لم تشفع له عنـد أعدائه الحاقدين عليه، وقـد دبر هؤلاء كيفية الخـلاص منه. وقد كان من ضمن هؤلاء المدبرين لمقتله نـفر من أمراء المماليك كانوا يرون أن انتـصارات خليل أعطته تماديًا فى التكبر والتعظم عليهم.

وقد تزعم حـركة التآمر هذه الأمـير «بدر الدين بيدرا» نائب السلطنة، الذى سـاءت العلاقة بينه وبين السلطان بشكل خطير. ومن كبار الأمراء الذين شاركوا فى مؤامرة الاغتيال: حسام الدين لاجين، وشمس الدين قـراسنقر، وسيف الدين بهادر. وقـد انتهز هؤلاء الأمراء المتآمـرون فرصة خروج السلطان للصيـد سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م فتتبعـوه وأجهزوا عليه بسيوفـهم عندما تأكدوا من ابتعاده عن حرسه عند بلدة تروجه (بمحافظة البـحيرة). وهكذا كانت نهاية حياة هذا البطل العظيم الذى قطع دابر الصليبيين من بلاد الشام وطهر أرضها من رجس دنسهم.

وكانت مدة مملكة الأشـرف خليل على مصر ثلاث سنين وشهرين وخمـسة أيام، وكان قد جلس على تخت الملك فى صبـيحة دفن والده يوم الاثنين الثامن ذى القـعدة سنة ٦٨٩هـ، وقُتل يوم السبت ١٢ المحـرم سنة ٦٩٣هـ. وقد قال عنه المؤرخ النويرى فى تاريخـه: «كان ملكًا مهيـبًا شجاعًـا مقدامًا جـسورًا جوادًا كريمًا بالمال». وقـال عنه الذهبى فى تاريخه : «كان بطلاً شـجاعًا مقدامًا عـالى الهمة يملأ العين ويرجف القلب وكان إلى جوده وبذله الأمـوال فى أغراضه المنتهى،

وكان قوى البطش رابط الجأش تخافه الملوك فى أمصارها والوحوش الفنارية فى آجامها، ولعل الله عزَّ وجل قد عـفا عنه وأوجب له الجنة لكثرة جهاده ونكايته فى الكفار».

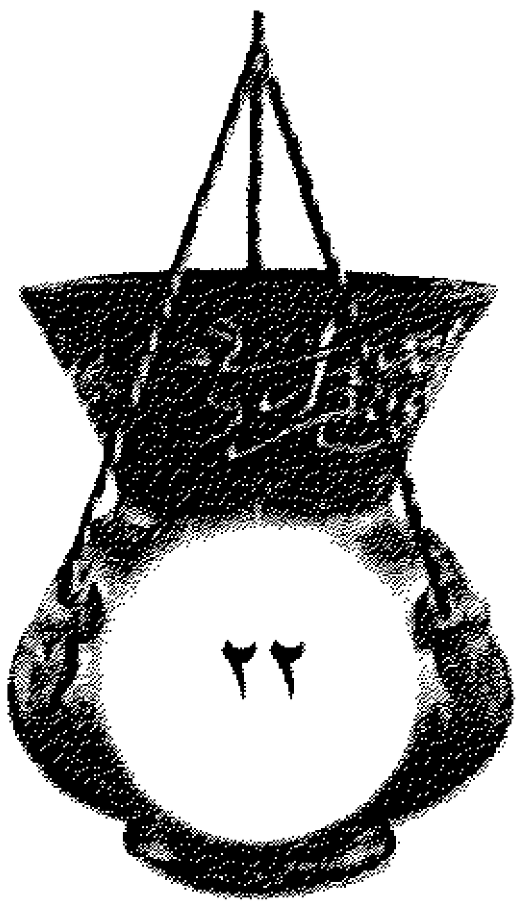

سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الأولى على مصر (٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م):

هو السلطان الملك الناصر أبو الفتوح ناصر الدين محمد، ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون، ولد بالقاهرة سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م بقلعـة الجبل، وجلس على عرش السلطنة بعد قتل أخيه الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون، يوم الإثنين رابع عشر المحرم من سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م، باتفاق أمراء المماليك البحرية على سلطنته عِوضًا عن أخيه، وهو السلطان التاسع من سلاطين المماليك الذين حكموا مصر والشام.

ولما استقر فى السلطنة رتب الأمراء الأمير زين الدين كـتبغا المنصورى نائبًا للسلطنة بدلاً من بدر الدين بيدرا الذى قُـتل، والأمير علم الدين سنجـر الشجاعى وزيرًا ومـدبرًا للمملكة وأتابك العسكر، ثم قبضوا على جماعة من قتلة الأشرف خليل فى العشرين من صفر.

ولقد كان السلطان الملك الناصر مـحمد طفلاً صغيرًا، لم يتجـاوز التسع سنوات من العمر حين ولى السلطنة، وقد اخـتاره أمراء المماليك سلطانًا مؤقـتًا لحين ظهور شخصـية قوية من بينهم يستطيع الاستحواذ على هذا الطفل الصغير ثم عزله وتولى الحكم مكانه.

طشت نحاس مكفت بالفضة للسلطان الناصر محمد

وبالفـعل قـضى الناصر محمد سنة واحدة فى الحكم كـان محـجورا عليـه فى القلعة من قـبل الأميـرين علم الدين سنجر الشجاعى وكتبغا المنصورى. وقد نجح كتـبغا فى الانفـراد بالوصاية على السـلطان (الطفل) بعـد أن تخلص مـن زمـيله الشـجـاعى بالاغتيال.

وقد قام كتبغا، بعد قتل الشجاعى، بعزل الناصر محمد عن السلطنة سنة ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م، بحجة صغر سنه وعدم استطاعته حكم البلاد، وتولى كتبغا السلطنة وتلقب بالملك العادل.

ولم يبق العادل كتبغا فى الحكم سوى سنتين ونجح الأمير حسام الدين لاجين فى خلعه وتولى السلطنة مكانه سنة ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م، وتلقب بالسلطان المنصور. غير أن لاجين لم يبق فى الحكم أيضًا سوى سنتين، إذ سرعان ما حنق عليه الأمراء ونقموا ودبروا قتله وهو جالس فى القلعة مشغولاً بلعب الشطرنج سنة ٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م. واضطر أمراء المماليك إلى إحضار الناصر محمد من منفاه فى الكرك ليتولى السلطنة للمرة الثانية سنة ٦٩٨هـ، وليبق سلطانًا على البلاد مرة أخرى لمدة عشر سنوات (٦٩٨- ٧٠٨هـ/ ١٢٩٨- ١٣٠٨م).

سلطنة الملك الناصر محمد الثانية (٦٩٨- ٧٠٨هـ):

جلس الملك الناصر محمد على عرش السلطنة فى هذه المرة الثانية وعمره يومئذ نحو أربع عشرة سنة. وخلع السلطان على الأمير سيف الدين سلار بنيابة السلطنة وعلى الأمير حسام الدين لاجين بالأستادارية، واستمر الأمير آقوش الأفرم الصغير بنيابة دمشق. واستقرت الأمور للسلطان وكتبت البشائر بذلك إلى الأقطار وسر الناس بعودته إلى الملك سرورًا زائدًا بسائر البلاد.

وكان من أهم ما وقع من أحداث فى دولة المماليك فى تلك الأيام هو تجدد هجمات مغول فارس على بلاد الشام سنة ٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م، وتوغل قوات مليكهم «غازان» فى تلك البلاد وإيقاع الهزيمة بالقوات المملوكية هناك عند «مجمع المروج»، بين حمص وحماة ودخول غازان دمشق والإفساد فيها، وبقاؤه هنالك لمدة ثم عودته إلى بلاده بعد أن ترك نائبا عنه فى دمشق.

قدح زجاجى مطعم بالذهب والفضة

سنة ١٣٠٠م

موقعة مرج الصُفر:

ولم تقف قوات الناصر محمد مكتوفة الأيدى إزاء هذا الغزو المغولى المخرب، فخرج السلطان بنفسه على رأس جيش كبير قاصدا الشام فى العام التالى، ودخل دمشق وما أن علم غازان بذلك التحرك حتى عاد من بلاده إلى الشام لاستعادة دمشق. ودارت معركة عنيفة حاسمة بين قوات غازان المغولية وقوات المسلمين عند منطقة مرج «برج الصُفر»، قرب دمشق، هُزمت فيها القوات المغولية هزيمة كبيرة منكرة لا تقل فى حجمها ونتائجها وعدد قتلاها وأسراها عن هزيمتهم فى عين جالوت.

ولما بلغ غازان خبر هزيمة جيوشه اغتم غما شديدا وخرج من أنفه دم كثير واحتجب عن حواشيه، حتى شارف على الموت ومات كمدا بمدينة الرى سنة ٧٠٣هـ/ ١٣٠٢م، وتولى الملك بعده أخوه محمد بن أبغا بن هولاكو.

هذا ولم يستطع السلطان الناصر محمد، وهو لا يزال شابا، التصدى لمؤامرات كبار أمراء المماليك الطامعين فى الحكم والسلطنة؛ لذلك كانت سلطنة الناصر محمد الثانية سلطنة شكلية، وكان حكم البلاد فى الواقع بيد كبار أمراء المماليك سلار وبيبرس الجاشنكير اللذيْن ضيقا على السلطان الخناق، وحالا بينه وبين ممارسة الحكم الفعلى للبلاد «وقد ضاق صدره وصار فى غاية الحصر من تحكم بيبرس الجاشنكير وسلار عليه وعدم تصرفه فى الدولة فى كل ما يريد، حتى أنه لا يصل إلى ما تشتهى نفسه من المآكل لقلة المرتب له» فلولا ما كان يتحصل له من أملاكه وأوقاف أبيه لما وجد سبيلا لبلوغ بعض أغراضه، وطال الأمر عليه سنين فأخذ فى عمل مصلحة نفسه وأظهر أنه يريد الحج بعياله، وحدث بيبرس وسلار فى ذلك يوم النصف من شهر رمضان فوافقاه عليه وأعجب البرجية خشداشية بيبرس سفرُه لينالوا أغراضهم وشرعوا فى تجهيزه».

وركب السلطان فى الخامس والعشرين من شهر رمضان من القلعة يريد السفر إلى الحج ونزل من القلعة ومعه جميع الأمراء، وخرج العامة حوله وهم يتباكون ويتأسفون على فراقة ويدعون له إلى أن نزل بركة الحجاج، وخرج من مصر قاصدًا الحجاز عن طريق الكرك. ولكنه ما أن وصل إلى الكرك سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٨م حتى استقر بها وأرسل كتابًا إلى أمراء المماليك بمصر يخبرهم بما أقدم وصمم عليه وهو التنازل عن السلطنة والاستقرار فى الكرك. وعلى أثر ذلك كان على أمراء المماليك أن يختاروا بدله سلطانا على البلاد، فبايع الأمراء الأمير بيبرس الجاشنكير بالسلطنة بعد أن اعتذر سلار عن قبولها.

سلطنة الملك الناصر محمد الثالثة (٧٠٩- ٧٤١هـ/ ١٣٠٩- ١٣٤٠م):

لم تستمر سلطنة بيبرس الجاشنكير إلا لعام واحد تقريبا؛ ذلك لكراهية الناس له وحبهم وتعلقهم بسلطانهم الناصر محمد، ولتنظيم الناصر محمد لصفوفه وهو فى الكرك لاسترداد سلطانه المفقود. كذلك بسبب انفضاض كثير من أمراء المماليك عن بيبرس وهروبهم إلى الناصر محمد. ولما أعد الناصر للأمر عدته عاد إلى مصر وحوله رجاله وأنصاره، ولم يجد الجاشنكير أمامه بُدًا إلا الفرار إلى أطفيح ومنها إلى برقة بليبيا، ولكن رجال الناصر قبضوا عليه وقام السلطان بتأنيبه حين مثل بين يديه وخنقه فمات ودُفن خلف قلعة الجبل ليلة الجمعة ١٥ ذى القعدة سنة ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م، وكانت مدة سلطنته عشرة أشهر وأربعة وعشرين يومًا على حسب رواية المؤرخ ابن تغرى بردى.

ولقد خرج الملك الناصر محمد يوم الثلاثاء السادس عشر من شهر رمضان سنة ٧٠٩ للهجرة، وهى الساعة التى خلع بيبرس نفسه فيها من ملك مصر، من دمشق يريد الديار المصرية وصحبه نواب البلاد الشامية جميعهم والعساكر الشامية وخواصه ومماليكه، ووصل إلى غزة وسار حتى نزل بركة الحجاج فى آخر شهر رمضان وصلى صلاة العيد هناك وخرج الناس للقائه واحتفوا به حتى وصوله إلى القلعة.

واسترد الملك الناصر السلطنة على مصر والشام للمرة الثالثة وهو يومئذ فى الخامسة والعشرين من عمره، واستمر هذه المرة فى السلطنة حتى وفاته سنة ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م مدة ٣٢ عاما. وكان فى هذه المرة قد صلب عوده واشتد ونجح فى دعم حكمه والتخلص من أعدائه وإقامة الحكم المستقر الدائم الذى لم تعرفه بلاد مصر والشام فى عهود من حكمها من سابقيه.

ولقد أدى الاستقرار فى البلاد إلى رخاء الحال وإصلاح مسار الاقتصاد وتقدم العلوم وازدهار الفنون، حتى أن المؤرخين يعتبرون عصر حكم الناصر محمد أزهى عصور الفن والمعمار فى تاريخ مصر الإسلامية عامةً. ويشهد على ذلك مقدار ما خلفه هذا السلطان من مبان وقصور وعمائر ومساجد ومدارس وآثار قيمة مختلفة لا زالت قائمة تتحدى الزمن حتى الآن، ولا عجب أن وصف المقريزى المؤرخ الناصر بأنه كان محباً للعمارة وأن مصروف العمارة فى كل يوم من أيامه بلغ سبعة آلاف درهم. ومن منشآته المشهورة المدرسة الناصرية، والمسجد الذى شيده بالقلعة، والخانقاه التى أقامها للصوفية فى بلدة سرياقوس. هذا إضافة للمنشآت التى قام بتجديدها مثل المارستان المنصورى الذى كان والده قد شيده سنة ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م.

أما عن علاقة الناصر محمد بالمغول، فإن مليكهم غازان، حاكم مغول فارس قد خلفه بعد موته الملك أولجاتيو، وقد بادر هذا الملك غداة توليه الحكم إلى مصالحة السلطان الناصر وطلب وده بإقامة العلاقات الطيبة بين دولته ودولة المماليك. ولكن أولجاتيو لم يكن جادًا فى عرضه لذلك لم تتوطد العلاقة بين الجانبين فى عهده، بل توطدت فى عهد خلفه ابنه (بوسعيد)، سنة ٧١٦هـ/ ١٣١٦م، وقد قام بوسعيد بتوقيع معاهدة صلح مع الملك الناصر، واستمر هذا الصلح قائمًا بين الطرفين طوال عهد الملك بوسعيد حتى وفاته سنة ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م.

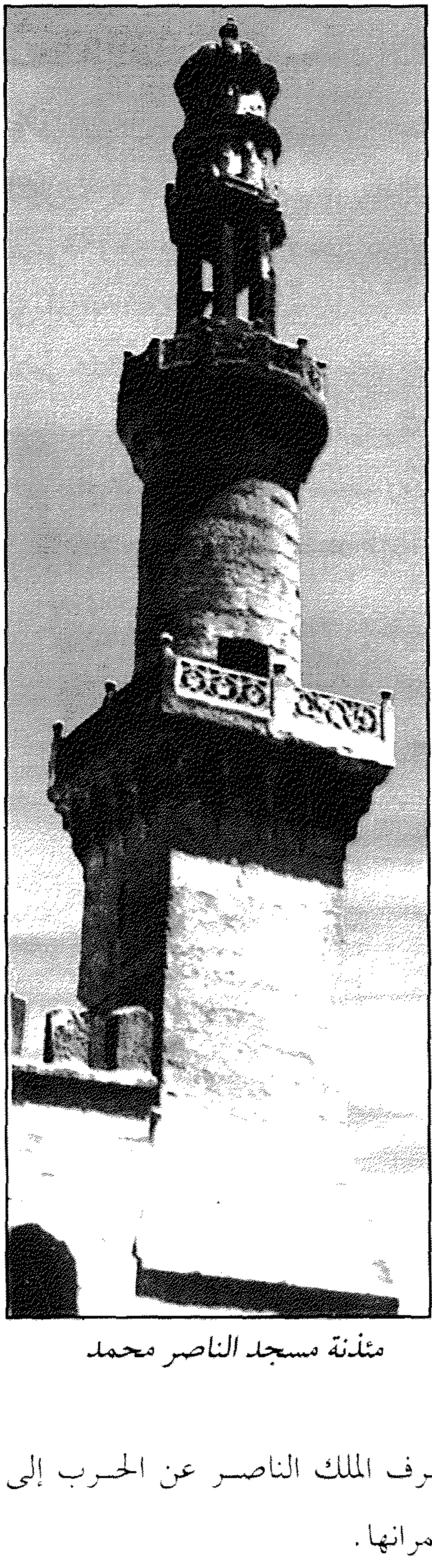

مئذنة مسجد الناصر محمد

وبوفاة الملك بوسعيد دب الاضمحلال فى دولة مغول فارس والعراق، فاضطربت أحوالها وانقسمت فيما بينها وسادها التمزق والاضمحلال ورغم هذه الحالة السيئة التى وصلت إليها دولة مغول فارس فإن حكومة الملك الناصر محمد احترمت تعهداتها معها ولم تقم بشن حرب عليها، وانصرف الملك الناصر عن الحرب إلى إصلاح حال البلاد وزيادة عمرانها.

مشكاة مزخرفة بالمينا سنة ١٣٣٧م

وفى ذات الوقت استمرت علاقة دولة الناصر محمد الطيبة مع مغول القبجاق (القبيلة الذهبية) استمرارًا للعلاقة الطيبة التقليدية بين هذه الدولة ودولة المماليك، وقد تواصل تبادل الهدايا بين حكام الدولتين، كما استمرت المصاهرة بينهما، فكما تزوج السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى من ابنة الملك بركة خان، تزوج السلطان الناصر محمد من أميرة مغولية تمت بصلة القرابة للملك المغولى أزبك خان. وقد استمرت الصداقة والعلاقة الطيبة قائمة بين الطرفين حتى لقت دولة مغول القبجاق نهايتها فى أواخر القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى، على يد تيمورلنك، وتبعًا لذلك تلاشى أمر هذه الدولة تمامًا من الوجود فى القرن التالى.

ولقد بدأ توعك السلطان ومرض مرض موته وفارق الدنيا فى أول ليلة الخميس الحادى والعشرين من ذى الحجة سنة ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م، وله من العمر ثمانية وخمسون عامًا ودفن بالقرافة عند باب النصر. وقد وصفه صاحب النجوم الزاهرة بأنه كان «أطول الملوك زمانًا وأعظمهم مهابة وأغزرهم عقلا وأحسنهم سياسة وأكثرهم دهاء وأجودهم تدبيرًا وأقواهم بطشًا وشجاعة وأحذقهم تنفيذا. مرت به التجارب وقاسى الخطوب وباشر الحروب وتقلب مع الدهر ألوانًا، نشأ فى الملك والسعادة، وله فى ذلك الفخر والسيادة خليقًا للمُلك والسلطنة، فهو سلطان وابن سلطان وأخو سلطان ووالد ثمانية سلاطين من صلبه، والمُلك فى ذريته وأحفاده وعقبه ومماليك مماليكه إلى أن تنقرض الدولة التركية، فهو أجلُّ ملوك الترك وأعظمها بلا مدافعة ومن ولى السلطنة من بعده بالنسبة إليه كأحد أعيان أمرائه».

ومن الصفات التى ذكرها عنه ابن تغرى بردى المؤرخ أنه كان متجملاً يقتنى من كل شىء أحسنه، وأنه أكثر فى سلطنته من شراء المماليك والجوارى وبذل لهم الأموال، وأنه كان مشغوفاً أيضا بالخيل وبذل فى اقتنائها الكثير من الأموال وبخاصة خيول العرب من آل مهنا وآل فضل. وهو أول من اتخذ من ملوك مصر ديواناً للإسطبل السلطانى وعمل له ناظرًا وشهودًا وكتابًا لضبط أسماء الخيل وأنسابها، وقد كان فى اسطبله ثلاثة آلاف فرس. وكان الملك الناصر شغوفًا بالصيد وعنى أيضا بالأوز وأقام لها عدة من الخدام وجعل لها جانبًا بحوش الغنم ولما مات ترك ثلاثين ألف رأس من الغنم سوى أتباعها وكان السلطان يرغب فى أصناف الجوهر فجلبتها إليه التجار من الأقطار، وشغف بالجوارى السرارى فحاز منهن كل بديعة الجمال، واستجد فى أيامه عمائر كثيرة منها حفر خليج الإسكندرية، وأنشأ الميدان تحت قلعة الجبل وأجرى له المياه وغرس فيه النخل والأشجار ولعب فيه بالكرة فى كل يوم ثلاثاء مع الأمراء والخاصكية وأولاد الملوك، وكان الملك الناصر يحب لعب الكرة إلى الغاية.

ثم عـمـرّ فوق الميـدان هذا القصـر الأبلق، ثم عمّـر بالقلعة أيـضًا دورا للأمراء الذين زوجـهـم لبناته وأجرى إليهـا المياه وعمل بهـا الحمامات، وعـمّر جامع القلعة وعمّر باب القرافة والخانقاه بناحـية سرياقوس والقصور بها، وحفر الخليج الناصرى خارج القاهرة حتى أوصله بسرياقوس كذلك عمّر أرض الطبالة وجزيرة الفيل وناحية بولاق.

ومن الصفات الشخصية التى تميز بها السلطان الناصر محمد أنه كان عف اللسـان لم يعهـد عنه أنه أطلق لسـانه بكلام فـاحش فى شدة غـضبـه ولا فى انبساطه، وأنه كان مـفرط الذكاء وانه كان يكره شرب الخمر ويعـاقب عليه من يشربه من الأمراء، وكـان فى الجود والكرم غـاية لا تدرك، وهب فى يوم واحـد ما يزيد عـلى مائة ألف دينار ذهبًـا وأعطى فى يوم واحد لأربعة من مماليكه مائتى ألف دينار.

وقد خلّف الناصـر محمد من الأولاد الذكـور ١٤ ابنًا ذكرًا ومن البنات سبـعًا وتسلطن من ولده لصلبه ثمانية أبناء.

والواقع أن وفـاة السلطان الملك الناصر مـحـمـد بن قلاوون سنة ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م جاءت إيذانًا بإنهاء فترة الاستقرار والرخاء اللذيْن تمتعت بهما مصر والشام فى عهد هذا السلطان.

وإذا كان أبناء الناصر محـمد وأحفاده قد لبثوا فى الحكم قـرابة نصف القرن من الزمان بعد وفاة الناصر نفسه، فإن ذلك يرجع إلى حب الناس لبيت قلاوون وللسمعة الطيبة والمكانة الراسخة والشهرة الواسعة التى تركها الناصر محمد بن قلاوون فى قلوب معاصريه.

سلطنة أبناء الناصر محمد بن قلاوون:

لقد تولى السلطنة ثمانية من أبناء الملك الناصر مـحمد بن قلاوون فى العشرين سنة الأولى التى أعقبـت وفاته (٧٤١- ٧٦٢هـ/ ١٣٤١- ١٣٦١م)، وفى العشرين سنة التـالية تولى السلطنة أربعة من أحـفاده (٧٦٢- ٧٨٤هـ/ ١٣٦١-١٣٨٢م) وكفانا أن نعـرف أن بعض هؤلاء السلاطين تولى السلطنة وعمـره لم يزد عن العام الواحد، كما أن بعـضهم لم يستمر فى الحكم إلا لبـضعة أيام، مما كان له تأثيره على دولاب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى البلاد.

كذلك فإن صـغر سن هؤلاء السلاطين وقلة خبـرتهم بالحكم أطمعت كبار أمـراء المماليك فيهم وجـعلتهم يتحكمون فـيهم، وصاروا هم الحكام الفعليـين للبلاد، من أمثال الأميـر قوصون الشيخى، والأمير يلبغا اليحياوى، والأمير أقسنقر السلارى، والأمير أرجون العلائى وغيرهم ومن هؤلاء الأمراء من ينتسب إلى المـماليك البرجية الجراكسـة، الأمر الذى يدل على ازدياد نفوذ تلك الطائفـة مما أدى فى آخـر الأمر إلى انـتزاع الحكم من المـماليك البـحرية وتوليـهم بداية من سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م، السلطنة على يد أول سلاطينهم الأمير الظاهر سيف الدين برقوق.

ولتفـصيل ذلك نقول أنه بعد وفـاة السلطان الناصر محمـد بن قلاوون، تولى السلطنة ابنه السلطان الملك المنصور سيف الدين أبوبكر، بعهد من أبيه يوم الخميس الحادى عشر من ذى الحجة سنة ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م، وقام الأمير قوصون بتدبير الدولة ثم رأى خلعه بعد تسعة وخـمسين يوما، يوم الأحد ٢٠ صفر سنة ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م، وأقام مكانه أخاه السلطان الملك الأشـرف علاء الدين كجك ابن الناصر محمد، وهو فى الثامنة من عمره، وهو الابن الثـانى من أبناء الملك الناصر محمد.

ولما تم الأمر لعلاء الدين كجك، جلس الأمراء المماليك وتشاوروا فـيما بينهم فيمن يقيمونه نائبًا للسلطان فرشح الأمير أيدغمش أميـر آخور لهذا المنصب، لكن أيدغمش رفض ذلك الترشيح وآثر أن يظل فى وظيفـته، فوقع اتفاق الأمراء بعـد ذلك على الأمير قوصـون الناصرى الذى قبل المنصب واستبد بالأمر دون السلطان وصار أمر السلطنة فى يده.

وكانت لقوصون المكانة عند سلاطين المماليك، فقد اتصل بالسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وأحرز المكانـة عنده ولم يكن قوصون مملوكًا أُشـترى من أسواق النخاسة لـكنه كان وافدا على مصر من بلاد الترك صحبة (خوند) بنت أزبك خان التى جاءت لتُزف على الملك الناصر وقد قربه الناصر إليه حـتى صار ساقيه وأعظم مماليكه، وتساوى فى المكانة مع بكتـمر الساقى وكان من كبار المقربين للسلطان.

وقد ترقى قوصون فى عهد الناصر فى الوظائف العسكرية حتى جعله أمير مائة ومقدم ألف ومن زائد حظوة قوصـون عند السلطان أن زوَّجه من ابنته، وهى ثانى ابنة للسلطان يزوجـها لأحد مماليكه.

ثم تزايد أمر قوصون بعد وفاة الملك الناصر وتحكم فى أبنائه من بعده، فتنكرت قلوب أمراء المماليك له وتغيرت عليه فحاربوه وقبضوا عليه ونهبت العامة دوره وأمواله.

وقام أمراء المماليك بخلع السلطان علاء الدين كجك يوم الخميس أول شعبان من نفس العام (٧٤٢هـ)، فكانت بذلك مدة حكمه خمسة أشهر وعشرة أيام، وقام الأمير أيدغمش بأمر الدولة، وبعث يستدعى من الكرك السلطان الملك الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد بن قلاوون، وكان مـقيمـا بقلعة الكرك منذ أيام أبيـه وأما قـوصون فقـد قُبض عليه وسُجن بالإسكندرية هو والطنبغا الصالحى نائب الـشام وغيرهما، حتى حضر الملك النـاصر أحمد من الكرك وجلس على كرسى الملك بقلعة الجبل واتفقت آراء الأمراء على قتل قوصون، فأرسل أمراء المماليك من قتله فى محبسه فى شهر شوال سنة ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م.

وأما الأمير أيدغمش فإنه استمر مدبراً لأمر الديار المصرية، وقام بأمر الملك الناصر أحمد بن محمد بن قلاوون، وهو لا يزال بالكرك، بجمع أمراء المماليك لخلع السلطان الأشرف علاء الدين كچك عن الملك، فتم لهم ذلك يوم الخميس أول شعبان من نفس العام، وكانت مدة سلطنته خمسة أشهر وعشرة أيام، ولم يكن له من السلطنة إلا مجرد الاسم، وقد توفى قتيلاً فى فراشه فى بلدة سرياقوس سنة ٧٤٦هـ/ ١٣٤٥م، وهو فى الثانية عشرة من عمره.

السلطان الملك الناصر أحمد بن محمد بن قلاوون (٧٤٢- ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢-١٣٤٣م):

هو السلطان الملك الناصر شهاب الدين أحمد بن السلطان محمد بن قلاوون، تولى السلطنة بعد خلع أخيه علاء الدين كچك عنها، وكان قد بويع بالسلطنة قبل خلع أخيه كچك أيضا وهو بقلعة الجبل وتسمى باسم الملك الناصر وأمه السيدة (بياض) وكانت من عتقاء الأمير بهادر الحسامى، رأس نوبة، وكانت تشتهر باسم (قونية) وقد بلغ السلطان محمد بن قلاوون خبر إجادتها للغناء فطلبها لتغنى له وحظيت عنده وتزوجها فولدت له ابنه أحمد.

ويعد الملك الناصر أحمد الخامس عشر من سلاطين المماليك البحرية بمصر، وهو يأتى الثالث فى الترتيب بين أولاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون وكان تولى السلطان الناصر أحمد السلطنة على أثر قبض الأمير أيدغمش على قوصون الوصى على علاء الدين كچك.

وقد بعث أيدغمش وأمراء المماليك: جنكلى، وبيبرس الأحمدى، وقمارى إلى الناصر أحمد وهو بالكرك يخبرونه بما وقع ويستدعونه ليتولى السلطنة مكان أخيه.

وفى يوم الجمعة ثانى شعبان سنة ٧٤٢هـ/ ١٧ يناير ١٣٤٢م، دُعِى على منابر مصر والقاهرة للسلطان الملك الناصر أحمد.

وفى يوم الإثنين الخامس من نفس الشهر تجمعت العامة بسوق الخيل وهم يحملون رايات صفراء، وصاحوا على الأمير أيدغمش مطالبينه بإمدادهم بالزاد والركائب ليذهبوا إلى الكرك لإحضار الملك الناصر إلى مصر، فوافقهم على ذلك وزودهم بما يريدون، وسافروا من غدهم إلى الكرك لإحضار السلطان. وكان ذلك أول تعبير شعبى عن رغبة الشعب المصرى فى اختيار حاكمه وأكبر دليل على حب الشعب المصرى لبيت قلاوون ولأبناء الملك الناصر محمد بن قلاوون.

وكان السلطان أحمد قد اشترط على أمراء المماليك عودة إخوته من منفاهم بمدينة قوص حتى يتولى السلطنة؛ فوافقوه على ذلك، وتم إحضارهم من منفاهم بقوص يوم الخميس السابع من شهر رمضان سنة ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م، وكانوا ستة من أولاد الناصر محمد بن قلاوون، واستقبلهم الأمراء والعامة استقبالاً حافلاً وحين تأكد الناصر أحمد من عودة إخوته إلى القاهرة

قرر القدوم إلى مصر تاركًا الكرك، وأرسل ثلاثة من رجاله فى الكرك إلى القاهرة يبشرون الناس بمقدمه، فخلع عليهم الأمراء المماليك عند قدومهم، وخرج العامة ينتظرون لقاء السلطان.

وفى يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر رمضان قدم قاصد السلطان إلى الأمير ايدغمش يفيد بمجيء السلطان ليلاً من باب القرافة وأمرِه له بأن يفتح باب السر حتى يعبر منه ففتح أيدغمش باب السر ومعه الطنبغا الماردانى، وباتا فى انتظاره طيلة ليلة الخميس الثامن والعشرين من الشهر وأقبل السلطان فى الليل فى نحو عشرة رجال من أهل الكرك وهو متلثم. وأصبحوا وقد دقت الطبول بالقلعة وزينت الفسطاط والقاهرة بأجمل زينة. وفى صباح يوم الجمعة استدعى السلطان الأمير أيدغمش وأخبره بأنه لم يكن يتطلع إلى الملك، وأنه كان قانعاً بولاية الكرك، ولكنهم حين أرسلوا فى طلبه لم يتردد فى تحقيق مطلبهم. فأثنى أيدغمش على السلطان وقبَّل الأرض بين يديه، وأرسل على لسان السلطان إلى الأمراء الشاميين يعرفهم بقدوم السلطان إلى مصر ويطلب منهم المثول بين يديه.

وفى يوم الإثنين العاشر من شوال سنة ٧٤٢هـ/ ٢٣ مارس ١٣٤٢م، ألبس السلطان أحمد شعار السلطنة وجلس على سرير الملك، وقد حضر جلوسه وتتويجه الخليفة العباسى الحاكم بأمر الله، أبو العباس أحمد، وقضاة مصر الأربعة وقضاة دمشق الأربعة وجميع الأمراء والمقدمين. وعهد إليه الخليفة وقبَّل الأمراء الأرض بين يديه، بحسب العادة عند تتويج السلطان، ثم نهض السلطان على قدميه، فتقدم الأمراء وقبلوا يده واحداً بعد الآخر على حسب مراتبهم، وجاء الخليفة بعدهم وقضاة القضاة.

وفى يوم الخميس الثالث عشر من شوال، خلع السلطان على سائر الأمراء وأنعم على الأمير طشتمر الساقى بنيابة السلطنة بالديار المصرية فتوجه من ساعته وباشر النيابة وجلس والحجاب قيام بين يديه والأمراء فى خدمته وأنعم السلطان على الأمير «طشتمر حمص أخضر» بعشرة آلاف دينار، وعلى الأمير قطلوبغا الفخرى بأربعة آلاف دينار ومائة ألف درهم فضة، ونزل فى موكب عظيم مع من حضر صحبته من أمراء البلاد الشامية.

ولم تطل مدة إقامة السلطان أحمد بالقاهرة، فقد اشتاق للعودة إلى الكرك موطنه القديم الذى نشأ وتربى وترعرع فيه، وكان أبوه قد أخرجه من مصر إلى الكرك وهو صغير دون أن يبلغ العاشرة من العمر، فتربى هناك وأحب أهل الكرك وأحبوه وصارت له وطنًا وموطنا. وخرج السلطان عائداً إلى الكرك يوم الأربعاء ثانى ذى القعدة واستخلف نيابةً عنه الأمير آقسنقر السلارى، نائب الغيبة.

وقد أدى غياب السلطان عن مصر وبقاؤه فى الكرك إلى اضطراب الأحوال بمصر وتحرك بعض أمراء المماليك للثورة والتمرد عليه فكتب أمراء السلطان الموالين له كتابًا إليه فى الخامس من المحرم سنة ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م يخبرونه بتوقف الحياة فى مصر واضطراب الأحوال بها بسبب غيابه عنها، وبقيام عربان الصعيد بالتمرد والعصيان وقطع الطريق على الناس، وسألوه سرعة الحضور لضبط الأمور وأرسلوا الكتاب مع الأمير طقتمر الصلاحى، الذى توجه بالفعل به إلى الكرك، وقابل السلطان وسلمه إياه، لكن ما خيب ظنهم هو عودة الصلاحى برفض السلطان العودة ومغادرة الكرك.

ولما جاء رد السلطان مخيبًا آمال أمرائه وتأكدهم من عزمه البقاء فى الكرك دون الحضور إلى مصر اتفقوا على خلعه من السلطنة وإقامة أخيه إسماعيل مكانه، فخُلع السلطان أحمد يوم الأربعاء ٢١ من المحرم فكانت مدة سلطنته ثلاثة أشهر وثلاثة عشر يومًا أقام خلالها بمصر قرابة شهرين وأقام الباقى منها بالكرك.

وقد ذكر المقريزى بأن السلطان أحمد لَمَّا خرج من مصر، متوجهًا إلى الكرك، حمل معه الخيول الحسان وأخذ جميع الطيور التى كانت فى الأحواش على اختلاف أنواعها والدواب وسيَّرها إلى الكرك وأيضا حمل معه ستمائة ألف دينار ذهبا وصندوقا مملوءا بالجواهر التى جمعها أبوه مدة سلطنته، وقد كان الناصر محمد شغوفا بجمع الجواهر، كما أسلفنا وأضاف المقريزى بأن «السلطان أحمد عند خروجه إلى الكرك، ما ترك بالقلعة مالا إلا أخذه، وأنه استمر بالكرك كأنه كان يعد نفسه للبقاء بها دون مصر لزائد حبه لها ولأهلها».

السلطان الملك الصالح عماد الدين إسماعيل (٧٤٣- ٧٤٦هـ/ ١٣٤٣- ١٣٤٥م):

هو السلطان الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن محمد بن قلاوون، تولى السلطنة بعد أخيه الملك الصالح فى يوم الخميس ثانى عشر المحرم، وقام زوج أمه الأمير أرجون بتدبير المملكة مع مشاركة عدة من أمراء المماليك البحرية. ولما تولى الملك الصالح السلطنة أرسل كتابًا لأخيه الناصر أحمد يعلمه فيه بأن الأمراء أقاموه سلطانًا على البلاد مكانه لَمَّا علموا أنه ليس له رغبة فى ملك مصر وأنه فضل عليها بلاد الكرك والشوبك من بلاد الشام، كما أخبره فى كتابه بأنه يعترف له بولاية أمر هذه البلاد وطلب منه أيضا فى كتابه هذا أن يعيد شارات الملك إليه وما كان أخذه من الخزائن وغيرها أثناء خروجه إلى الكرك، لكن الناصر أحمد لم يلتفت إلى طلب أخيه.

وما كـان من السلطان إسمـاعيل إلا أن أرسل إلى أخيـه قوة من جيـشه تحاصره فى الكرك، وتوالى إرسال القوات المملوكية إلى الكرك حتى نجحت هذه القوات آخر الأمر من الظفر بالناصر أحمـد بعد حصار لقلعة الكرك التى احتمى بها مدة سنتين وشهر وثلاثة أيام. وقد قُبض على الناصر أحمد يوم الاثنين ٢٢ صـفـر سنة ٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م، وقُـيـد وحُـبس فى القلـعـة، وأرسل السلطان إسماعيل الأمير منجك اليوسـفى الناصرى السلحدار إلى الكرك لإحضار الناصر أحمد حيًا لكن الأمـير منجك خالف أوامر السلطان وقام بقتل الناصر واحتـراز رأسه والتوجه بها إلى القاهرة. ولمَّا أحضـرت الرأس ووُضعت أمام السلطان وعلم أنها رأس أخيه أصـابه فزع شديد أعقبـه مرض ولم يزل الفزع يعتـاده والمرض يتملكه حتى توفى ليلة الخمـيس ١٤ ربيع الآخر سنة ٧٤٦هـ/ ١٣٤٥م، فكانت مـدة سلطنته ثلاثة سنين وشـهرين وأحـد عشـر يومًا، وقام بـعده فى الحكم أخوه السلطان الملك الكامل سيف الدين شعبان.

السلطان الملك الكامل سيف الدين شعبان (٧٤٦- ٧٤٧هـ/ ١٣٤٥- ١٣٤٦م):

هو السلطان الملك الكامل سيف الدين شعبان بن محـمد بن قلاوون، وهو السابع عشر من سلاطين المماليك البحـرية والخامس من أولاد الملك الناصر محمد، تولى السلطنة بعـد موت أخيه وشقيقه الملك الصالح إسماعيل يوم الخميس الرابع من شهر ربيع الآخر سنة ٧٤٦هـ/ ١٣٤٥م.

وكان سبب سلطنته أنه لما اشـتد بأخيه الصالح إسماعـيل المرض دخل عليه زوج أمه ومدبر مملكته الأمير أرجون العلائى فى عدة من الأمراء ليعهد بالسلطنة من بعده لأحد أخوته لكن الأمراء المماليك لم يحـفلوا بذلك لأنهم كانوا قد اتفقـوا فيما بينهم على اختـيار شعبـان سلطانًا، وقاموا باستـدعائه وبايعوه بالسلطنة وألبـسوه لباسـها وأركبـوه شعار الملك، وخُطب له على منابر مـصر والقاهرة وكُتب بسلطنته إلى الأقطار، ثم أخذ السلطان الملك الكامل شعبان فى تدبير مملكته والنظر فى أمور الدولة.

وفى أيام حكم هذا السلطان كُثر لعب الناس بالحَـمام لحب السلطان اللعب به وشدة ولعه، وتزايد سوء الخلق وتسلط عبيد الطواشية على الناس وصاروا كل يوم يتضاربون وتسفك بينهم دماء كثيرة، فاشتد قلق الناس من جراء ذلك.

وقـد أورد عن هذا السلطان صاحـب النجوم الزاهرة قـوله: «وكـان من أشد الملوك ظلمـًا وعسفًا وفسقـًا، وفى أيامه - مع قصر مدته - خربت بلاد كثيرة لشغفـه باللهو وعكوفه على معاقرة الخمور وسماع الأغانى. . وكان سفاكًا للدماء سيئ التدبير».

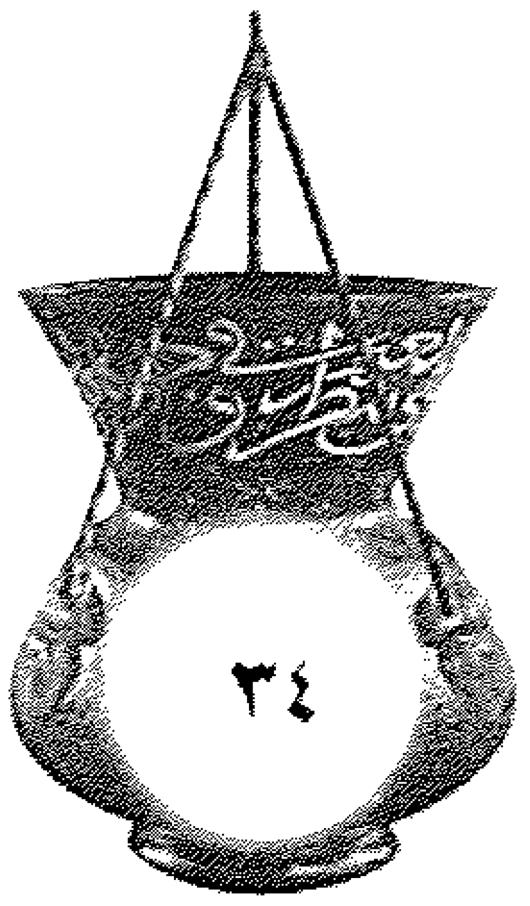

وقد ساءت العلاقة بين السلطان شعبان وكبار أمراء المماليك، وزادت الوحشة بينه وبينهم فركبوا عليه وركب لقتالهم فلم يثبت من معه، وعاد إلى القلعة منهزمًا فتتبعه الأمراء وخلعوه يوم الاثنين مستهل جمادى الأخرى سنة ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م، وقاموا بالقبض عليه وسجنوه واستمر فى السجن إلى يوم الأربعاء ثالث جمادى الآخرة، وقتلوه وقت الظهيرة ودفنوه ليلة الخميس فى القرافة الكبرى، وكانت مدة سلطنته سنة واحدة وثمانية وخمسين يوما، وأقيم من بعده أخوه السلطان الملك المظر زين الدين حاجى.

السلطان الملك المظفر زين الدين حاجى بن محمد بن قلاوون (٧٤٧ -٧٤٩هـ/ ١٣٤٦-١٣٤٨م):

السلطان المظفر زين الدين حاجى، هو الثامن عشر من سلاطين المماليك البحرية، والسادس من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون، وقد عرف باسم أمير حاج، تولى السلطنة بعد خلع أخيه الكامل شعبان وقتله يوم الاثنين مستهل جمادى الآخرة سنة ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م، وبعد أن أطلق سراحه من السجن الأمير أرجون شاه وأخاه حسين الذى كان محبوساً معه، ولما بويع حاجى بالسلطنة لقب بالملك المظفر وحلف له أمراء المماليك على الطاعة.

مشكاة زجاجية مطلية بالمينا سنة ١٣٤٩

ولقد ساءت سيرة هذا السلطان، مثل سابقه وانهمك فى اللعب بالحمام وبالعصى (التحطيب) مع أوباش الناس، كذلك انهمك باللعب بالرمح والكرة، وكان يشغل نهاره مع الغلمان والصيد فى الدهيشة، وصار يتجاهر بما لا يليق به أن يفعله وقد تآمر هذا السلطان على قتل أخيه حسين، وأرصد له عدة خدام ليهجموا عليه عند إتاحة الفرصة ويقتلوه فبلغ حسينا ذلك فتمارض واحترس على نفسه فلم يجدوا منه غفلة.

واتفق أمراء المماليك على عزل السلطان، واتفقوا على مكاتبة نائب الشام الأمير أرجون شاه بمفاسد السلطان وأن يأخذوا رأيه فيمن يقيموه سلطانا، فأصبحوا وقد اجتمع أمراء المماليك على إقامة حسين ابن الملك الناصر محمد عوضا عن أخيه فى السلطنة، ووقعت بينهم وبين حسين مراسلات إلا أنهم وقع اتفاقهم فى النهاية على أخيه الأمير حسن ليكون سلطانًا.

وجرت الحرب بين الملك المظفر وأعوانه وبين أمراء المماليك ورجالهم، وخان المظفر رجاله وتركوه وانضموا إلى صف الأمراء، وبقى السلطان يقاتل فى نحو عشرين فرسًا وتكاثر الأمراء عليه وقلعوه من سرجه وضُرب بالسيف فجُرح وجهه وأصابعه، ثم صاروا به على فرس غير فرسه محتفظين به إلى تربة أم سنقر الرومى تحت الجبل، وذبحوه من ساعته قبيل عصر يوم الأحد ثانى عشر شهر رمضان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة، ودُفن بتربة أمه، وكانت مدة المظفر زين الدين حاجى على مصر سنة واحدة وثلاثة أشهر وأربعة عشر يوما، وأقيم من بعده أخوه السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون.

ولقد أورد ابن تغرى بردى عن هذا السلطان قوله: «وكان المظفر أهوج سريع الحركة، عديم المداراة، سيئ التدبير يؤثر صحبة الأوباش على أرباب الفضائل والأعيان وكان فيه ظلم وجبروت وسفكَ للدماء، قُتل فى مدة سلطنته مع قِصرها، خلائق كثيرة من الأمراء وغيرهم، وكان مسرفا على نفسه يحب لعب الحمام وغيره ويحسن فنونا كثيرة من الملاعب كالرمح والكرة والمصارعة وضرب السيف مع شجاعة وإقدام من غير تثبيت فى أموره، وبالجملة فهو أسوأ سيرة من جميع اخوته ممن تسلطن قبل من أولاد الناصر محمد بن قلاوون».

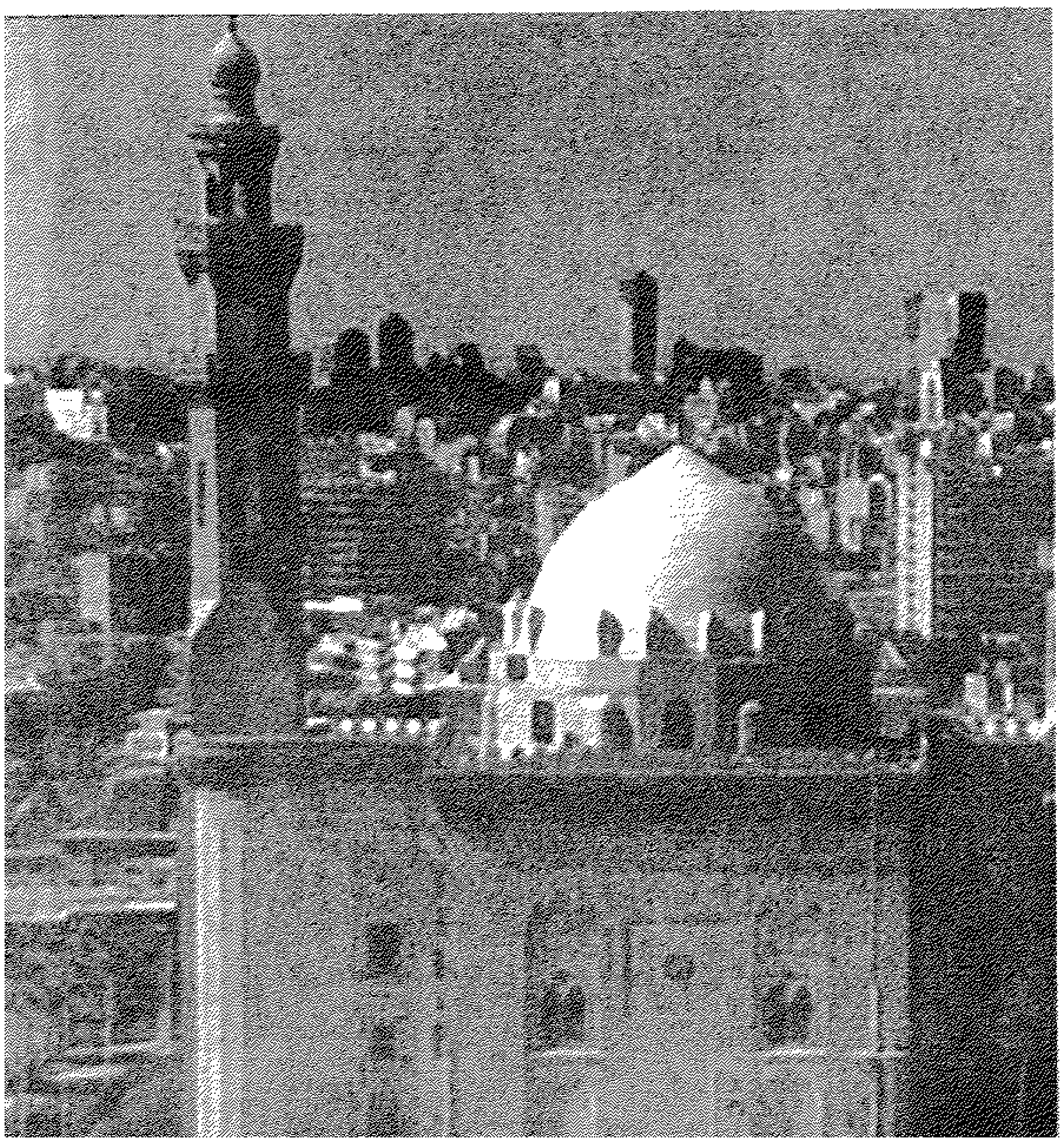

السلطان الملك الناصر حسن (٧٤٨- ٧٥٢هـ/ ١٣٤٧-١٣٥١م) السلطنة الأولى:

هو السلطان الملك الناصر بدر الدين أبو المعالى حسن بن محمد بن قلاوون، وهو السلطان التاسع عشر من سلاطين المماليك البحرية والسابع من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون.

مسجد السلطان حسن

وقد أجلسه الأمراء على كرسى السلطنة يوم الثلاثاء رابع عشر شهر رمضان سنة ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م، ولقب بالملك الناصر حسن، وكان عمره يوم تولى السلطنة أحد عشرة سنة ولم يكن له من الأمر شىء.. وكان القائم بالأمر الفعلى هو الأمير شيخون العمرى، وكان أمر المشورة فى الدولة والتدبير لتسعة أمراء من أمراء المماليك البحرية.

وفى بداية حكم هذا السلطان وقع بمصر وباء الطاعون مما تسبب فى موت الكثير، حتى أنه كان يموت بالقاهرة ومصر يوميا ما بين عشرة آلاف إلى خمس عشرة آلاف نفس ثم اتصل الوباء ببلاد الشرق جميعها وبلاد العراق والشام وبلاد الفرنج والمغرب والأندلس، وازدادت أعداد الموتى بالقاهرة مع الأيام، ويقول فى ذلك أبو المحاسن ما نصه: «فما أهل ذو القعدة إلا والقاهرة خالية مقفرة، لا يوجد بشوارعها مار، بحيث أنه يمر الإنسان من باب زويلة إلى باب النصر فلا يرى من يزاحمه لاشتغال الناس بالموتى، وعلت الأتربة على الطرقات وتنكرت وجوه الناس وامتلأت الأماكن بالصياح فلا تجد بيتًا إلا وفيه صيحة، ولا تمر بشارع إلا وترى فيه عدة أموات» واستمر هذا الوباء قائمًا فى البلاد يقتل الناس ويبيدهم إلى أن أخذ فى التناقص فى أول المحرم من سنة ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م.

وكانت مدة سلطنة السلطان حسن الأولى ثلاث سنين وتسعة أشهر وأربعة عشر يوما منها ثلاث سنين مدة الحجر عليه، ومدة استبداده بالأمر نحو سبعة أشهر وأربعة عشر يوما وكان القائم بأمر دولته أيام الحجر عليه الأمير شيخون العمرى رأس نوبة النواب، وإليه كان أمر خزانة الخاص. وكان أمر التصرف فى أموال الدولة للأمير منجك اليوسفى الوزير والاستدار ومقدم المماليك، وكان الحكم بين الناس وتدبير العسكر للأمير بيغا أرس.

«وكانت أيامه شديدة كثرت فيها المغارم وخربت عدة أملاك على النيل واحترقت مواضع كثيرة بالقاهرة ومصر وخرج العربان من الطاعة واشتد فسادهم، وكان فى أيامه الفناء العظيم من الطاعون الذى لم يعهد فى الإسلام مثله، وتوالى فى أيامه شراقى البلاد وإتلاف الجسور وثورة العربان ببلاد الصعيد وإفسادهم فاختلت أرض مصر وبلاد الشام بسبب ذلك خللاً فاحشًا، كل ذلك من اضطراب المملكة واختلاف الكلمة وظلم الأمير منجك وعسفه»، ويؤكد المؤرخ ابن تغرى بردى ضعف حال السلطان حسن بقوله: «وأما الملك الناصر حسن وكان فى نفسه مفرط الذكاء،

عاقلاً وفيه رفق بالرعية، ضابطًا لما يدخل إليه وما يصرفه كل يوم، متدينًا شهمًا، لو وجد ناصرًا أو معينًا لكان أجل الملوك، وأما سلطنته الأولى لم يكن له فيها من السلطنة إلا مجرد الاسم فقط، وذلك لصغر سنه وعدم وجود من يؤيده». ولقد ساءت علاقة السلطان حسن مع الأمراء المماليك فوافقوا على خلعه من السلطنة وإحلال أخيه الملك الصالح بن محمد بن قلاوون مكانه.

ونجح أمراء المماليك فى ذلك، ولما تولى صالح السلطنة نقل أخاه حسن إلى حيث كان يسكن قبل توليه السلطنة ورتب فى خدمته جماعة وأجرى عليه من الرواتب ما يكفيه، وبذلك زالت سلطنة حسن الأولى يوم الإثنين ١٨ جمادى الآخرة سنة ٧٥٢هـ/ ١٣٥١م، فكانت مدة هذه السلطنة الأولى أربع سنين تقريبا.

سلطنة الملك الصالح بن محمد بن قلاوون (٧٥٢- ٧٥٥هـ/ ١٣٥١- ١٣٥٤م):

هو السلطان الملك الصالح بن محمد بن قلاوون، وهو العشرون فى الترتيب فيمن تسلطن من المماليك البحرية على مصر والشام، وهو الثامن من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون الذين تولوا السلطنة، وقد ذكر المؤرخ المقريزى من سيرته قوله: «أقيم سلطانا بعد أخيه يوم الاثنين، فكثر لهوه، وخرج عن الحد فى التبذل واللعب، فثار عليه الأميران شيخون وطاز، وقبضا عليه وسجناه بالقلعة يوم الاثنين ثانى شوال سنة خمس وخمسين وسبعمائة، فكانت مدته ثلاثة سنين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام، وحُبس هذا السلطان فى بعض دور القلعة إلى أن توفى بها فى ذى الحجة سنة ٧٦١هـ/ ١٣٥٩م وله من العمر سبع وعشرين سنة، ودفن بتربة عمه الملك الصالح على بن قلاوون بالقرب من المسجد النفيسى خارج القاهرة، وواصل المقريزى قوله عن هذا السلطان وصفاته:

«وكان ملكًا جليلاً عاقلاً، لم تشكر سيرته ولم تذم لأنه لم يكن له فى سلطنته إلا مجرد الاسم فقط لغلبة شيخون وطاز وصرغتمش على الأمر لأنهم كانوا هم حل المملكة وعقدها وإليهم أمورها لا غيرهم».

سلطنة الناصر حسن الثانية (٧٥٥- ٧٦٢هـ/ ١٣٥٤- ١٣٦٠م):

أعيد السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون إلى السلطنة ليتولاها للمرة الثانية بعد خلع أخيه الملك الصالح صالح بن محمد بن قلاوون، وبعد عودة هذا السلطان إلى السلطنة يقول

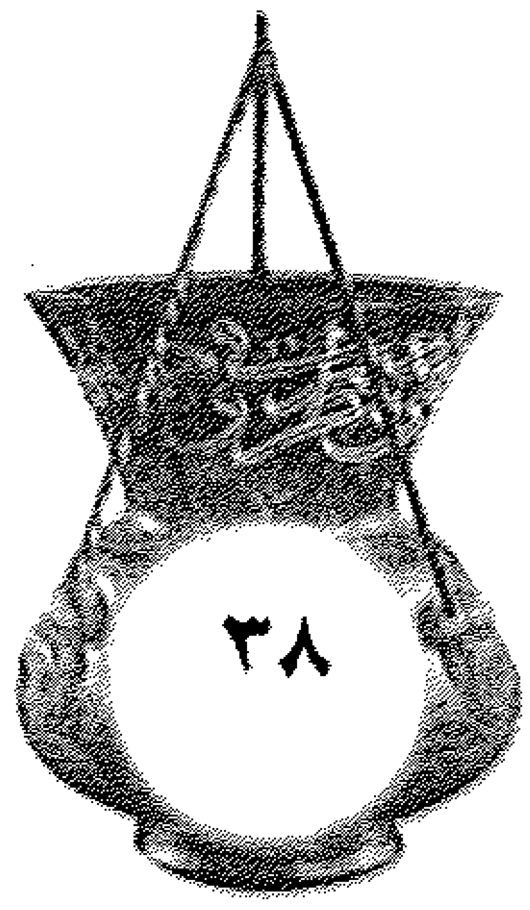

المؤرخ أبو المحاسن، صاحب النجوم الزاهرة: «ولما قبض على أصحاب الأمير طاز اتفق صرغتمش مع الأمير شيخون على خلع الملك الصالح من السلطنة وسلطنة الملك الناصر حسن ثانيًا وأبرموا ذلك حتى تم لهم، فقاموا ودخلوا إلى القلعة وأرسلوا طلبوا الملك الصالح، فلما توجه إليهم أخذ من الطريق وحبس فى بيت من قلعة الجبل، وأرسلوا شهود عليه بأنه خلع نفسه من السلطنة، ثم طلبوا الملك الناصر حسن من محبسه بالقلعة وكلموه فى عودته واشرطوا عليه شروطا قبلها، فأخذوه إلى موضع بالقلعة بأبهة الخليفة والقضاة وبايعوه ثانيا بالسلطنة ولبسوه تشريف السلطنة وأبهة الملك، وركب فرس النوبة ومشت الأمراء بين يديه إلى الديوان، فنزل وجلس على تخت الملك وقبَّل الأمراء الأرض بين يديه على العادة وكان ذلك فى يوم الإثنين ثانى شوال سنة خمس وخمسين وسبعمائة، ولم يُغير لقبه بل نُعت بالناصر كما كان أولاً على لقب أبيه ونودى باسمه فى مصر والقاهرة ودقت البشائر وتم أمره».

واستمر السلطان الناصر حسن هذه المرة سلطاناً مدة ست سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام، وقد تمكن الحكم له خلال هذه المدة، إلا إنه وقع الخلاف بينه وبين الأمير يلبغا العمرى، الذى عظم أمره فى الدولة وصار صاحب الكلمة فيها وثقلت وطأته على أستاذه الملك الناصر.

وكان كل من الأمراء يلبغا وطيبغا وتمان، هم أعظم أمراء السلطان وخاصكيته من مماليكه وما أن استهلت سنة ٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م حتى بلغ الملك الناصر حسن أن يلبغا ينكر عليه إعطائه الإقطاعيات الهائلة للنساء، واختصاصه بالطواشيه وتحكمهم فى المملكة وأشياء من هذا القبيل. وصارت الخاصكية ينقلون للسلطان عن يلبغا أمورًا قبيحة فى حقه، فتكلم السلطان مع خواصه فى ضرورة الخلاص منه، وقد أحس يلبغا بتغير السلطان عليه لذلك دبر بدوره أمر الخلاص من السلطان وأخذ كل منهما يتحين الفرصة للإيقاع بصاحبه. وعن نهاية السلطان الناصر حسن يذكر أبن تغرى بردى النص التالى: «واتفق بعد ذلك أن السلطان حسن خرج إلى الصيدبين الجيزة بالقرب من الأهرام، وخرج معه غالبية أمرائه بما فيهم يلبغا وغيره على العادة، فلما كان يوم الثلاثاء ثامن جمادى الأولى سنة ٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م، أراد السلطان القبض على يلبغا لما بلغه أنه يريد الركوب عليه هناك، فصبر السلطان حتى دخل الليل فركب ببعض خاصكيته من غير استعداد ولا اكتراث وسار يريد يكبس على يلبغا بمخيمة، فأخبر بعض خاصكية السلطان بذلك إلى يلبغا فاستعد بمماليكه وحاشيته لقتاله وطلب خشداشيته ووعدهم بالإمارات والإقطاعيات وخوفهم عاقبه أستاذهم الملك الناصر حسن حتى وافقه كثير منهم، كل ذلك والملك الناصر فى غفلة استخفافا

بمملوكه يلبغا حتى قارب السلطان خيمة يلبغا خرج إليه يلبغا بمن معه وقاتله فلم يثبت السلطان لقلة ما كان معه من مماليكه وانكسر وهرب وعدى النيل وطلع إلى قلعة الجبل فى الليل، فى ليلة الأربعاء التاسع من جمادى الأولى سنة اثنين وستين، وتبعه يلبغا ومن معه يريد القلعة».

وقد نجح يلبغا فى القبض على السلطان وقتله، فكانت مدة سلطنته الثانية هذه ست سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام، وأقيم من بعده فى السلطنة ابن أخيه السلطان الملك المنصور صلاح الدين محمد بن المظفر حاجى بن محمد بن قلاوون، أقامه يلبغا العمرى بعد أن استولى على القلعة والخزائن والسلاح والخيول والجمال وعلى جميع ما خلفه أستاذه الملك الناصر حسن.

وقد أطنب المؤرخون فى ذكر سيرة الناصر حسن فقالوا عنه إنه كان سلطانًا شجاعًا مقدمًا كريمًا عاقلاً حازمًا مدبرًا سيوسًا، ذا شهامة وصرامة وهيبة ووقار، عالى الهمة كثير البر والصدقات، ومما يدل على علو همته مدرسته التى أنشأها بالرميلة، تجاه قلعة الجبل فى مدة يسيرة مع قصر مدته فى السلطنة، ولا تزال هذه المدرسة قائمة إلى اليوم وتُعرف بجامع السلطان حسن وهى أفخم وأضخم مساجد مصر على الإطلاق. وكان السلطان حسن محبًا للرعية حمدت سائر خصاله، كريمًا بارًا بإخوته وأهله، يميل إلى فعل الخير

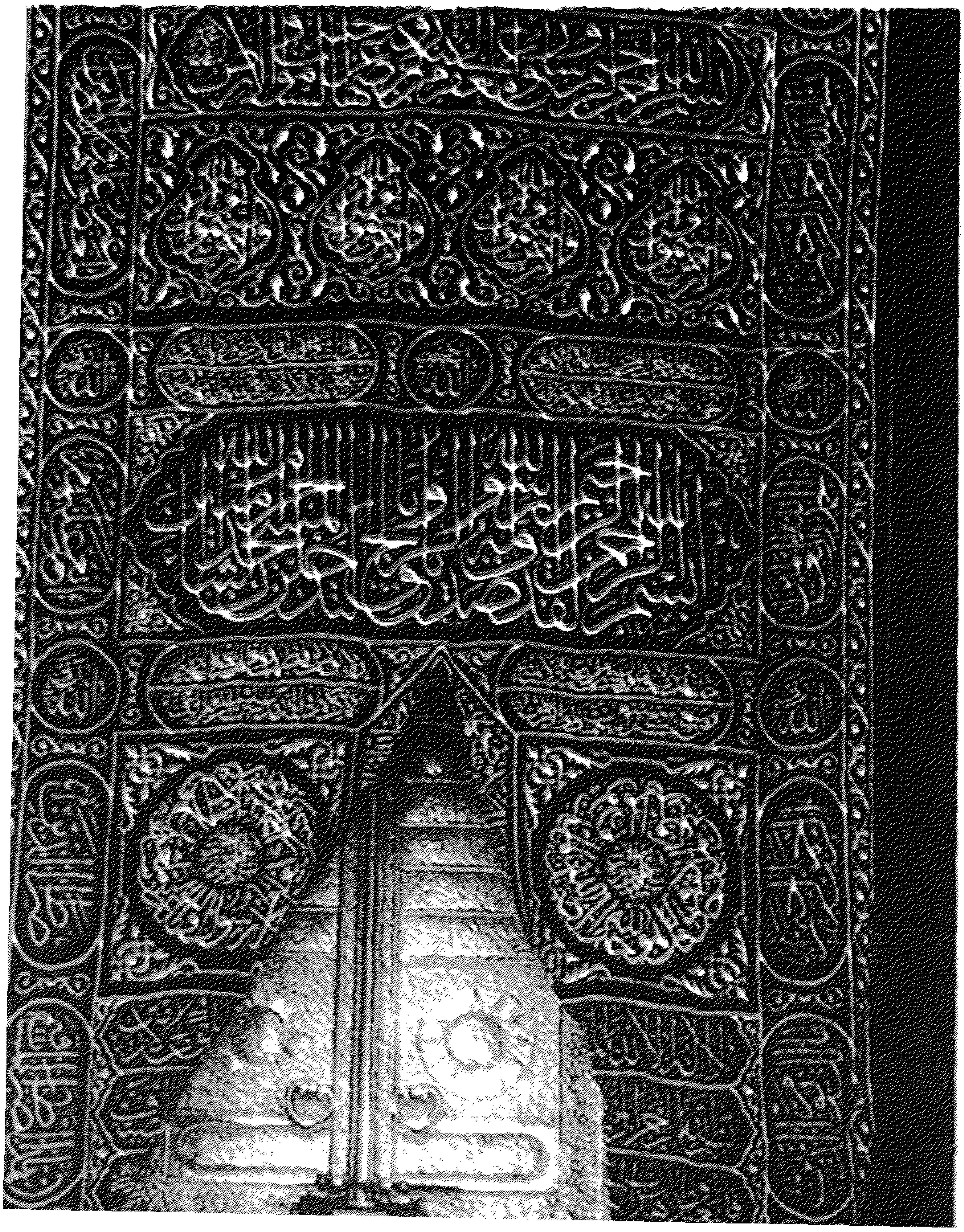

باب الكعبة

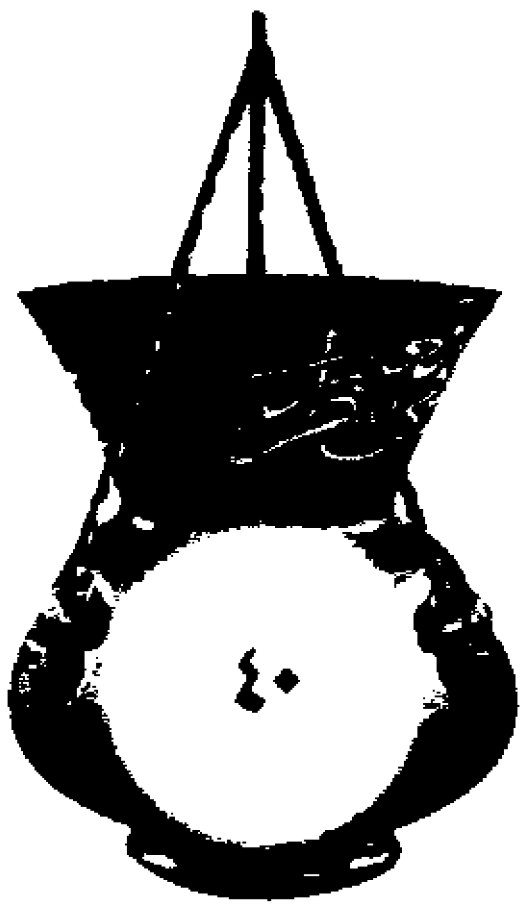

والصدقات وله مآثر بمكة المشرفة، واسمه مكتوب فى الجانب الشرقى من الحرم الشريف، وعمل فى زمنه باب الكعبة الذى هو بابها الآن، وقام بإرسال الكسوة للكعبة.

السلطان الملك المنصور أبو المعالى ناصر الدين محمد (٧٦٢- ٧٦٤هـ/ ١٣٦٠- ١٣٦٢م):

تولى السلطنة بعد الناصر حسن ابن أخيه الملك المنصور أبو المعالى ناصر الدين محمد بن المظفر حاجى بن محمد بن قلاوون، وهو الحادى والعشرون من سلاطين المماليك البحرية، تولى الحكم صبيحة القبض على عمه وقتله يوم الأربعاء التاسع من جمادى الأولى سنة ٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م، وكان عمره يومئذ ١٤ سنة، ولقب بالملك المنصور وكان مدبر أمر مملكته والقائم بالأمر الأمير يلبغا العمرى، وسرعان ما أظهر الوزير يلبغا عداوته للسلطان وطمعه فى عزله وإحلال سلطان آخر مكانه وقد أشاع يلبغا عن السلطان قيامه بأمور شنيعة نفرت قلوب الأمراء منه مما جعلهم يوافقونه على خلعه من السلطنة، فقام يلبغا بالفعل بخلعه وسجنه بالقلعة يوم الاثنين رابع عشر شعبان سنة ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م، وأقام مكانه ابن عمه الملك الأشرف شعبان ابن حسين وكانت مدة سلطنة الملك المنصور سنتين وثلاثة أشهر وستة أيام، وليس له فيها من السلطنة سوى مجرد الاسم والأمر كله والتصرف فى سائر أمور المملكة بيد الوزير الأتابك يلبغا، وقد استمر الملك المنصور محبوساً بالدور السلطانية من القلعة إلى أن مات بها فى ليلة التاسع من المحرم سنة ٨٠١هـ/ ١٣٩٨م.

السلطان الملك الأشرف زين الدين شعبان (٧٦٤- ٧٧٨هـ/ ١٣٦٢- ١٣٧٦م):

هو السلطان الملك الأشرف زين الدين بن حسين بن محمد قلاوون تولى السلطنة بعد الملك المنصور أبو المعالى، وهو السلطان الثانى والعشرون من سلاطين المماليك البحرية، تولى يوم الثلاثاء ١٥ شعبان، وعمره عشر سنين، ولم يل من بنى قلاوون من لم يتسلطن أبوه سواه، فأقام تحت حجر ووصاية الوزير يلبغا حتى قتل يلبغا بعد أربع سنين من ولايته ليلة الأربعاء عاشر ربيع الآخر سنة ٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م، فأخذ السلطان شعبان يستبد بالأمر وينفرد بتدبير ملكه إلى أن تخلص منه أمراء المماليك بالقتل يوم الثلاثاء، سادس ذى القعدة سنة ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م، وأقيم ابنه مكانه فى السلطنة، فكانت مدة سلطنته أربع عشرة سنة وشهرين وخمسة عشر يوما.

ولم تقع فى عهد هذا السلطان أحداث مهمة سوى عودة نشاط الصليبيين وعودة هجومهم على البلاد الإسلامية بعد توقف دام ٧٧ عاماً، أى منذ الاستيلاء على عكا من الصليبيين سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م، وطرد آخر بقايا لهم فى بلاد الشام.

وقد انتهز الصليبيون اضطراب أحوال بلاد مصر والشام فى ظل حكم أبناء وأحفاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون الضعاف ووجدوها فرصة مناسبة لهم لتحقيق ما لم يستطيعوا تحقيقه فى عهد حكم مماليك البحرية الأول الأقوياء الأشداء.

وفى ذلك الدور الجديد من أدوار الحرب الصليبية ضد المسلمين، اتخذ ملوك جزيرة قبرص من آل لوزجنان جزيرتهم قاعدة كبرى لتهديد السفن والمتاجر الإسلامية فى شرق حوض البحر المتوسط، فضلا عن القيام بغارات جوية من فوق أرض هذه الجزيرة على بعض الموانى المملوكية الإسلامية، وقد ساعد ملوك قبرص فى تنفيذ هذه السياسة لجوء كثير من شتات الصليبيين من الشام إلى جزيرتهم فى أواخر القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى، استعانوا بهم فى حربهم ضد المسلمين والانتقام مما سبق أن حل بالصليبيين الأول فى بلاد الشام.

ولقد فكر ملك قبرص بطرس الأول لوزجنان عند اعتلائه عرش بلاده سنة ٧٦٠هـ/ ١٣٥٩م، فى القيام بحملة صليبية كبرى ضد بلاد المسلمين.

ونجح هذا الملك فى سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م فى تجميع قواته فى جزيرة رودس ومهاجمة ثغر الإسكندرية، ونزل الصليبيون على شاطئ الإسكندرية صباح يوم الجمعة سنة ٧٦٧هـ، ونجحوا فى الاستيلاء عليها واستباحتها مدة ستة أيام ونهبها وتدمير مرافقها وما أن وصل الخبر لمتولى الأمور فى مصر وهو الأمير يلبغا إلا وسار على رأس جيش كبير متوجهاً إلى الإسكندرية لتخليصها من يد الصليبيين وبمجرد أن أحس الملك القبرصى بهذا التحرك المصرى نحوه حتى سارع بالجلاء بقواته عن الإسكندرية يوم الخميس السادس عشر من شهر أكتوبر سنة ١٣٦٥م، بعد أن حمل فى سفنه معه آلاف الأسرى من المسلمين والكثير من الأسلاب.

ولمَّا وصل يلبغا بقواته إلى الإسكندرية وشاهد ما حل بالمدينة والثغر من خراب ودمار أمر بدفن جثث القتلى وترميم ما خربه الصليبيون، وقد نبهت هذه الغزوة الصليبية حكام المماليك فى مصر إلى ضرورة الاستعداد للدور الجديد من أدوار الحروب الصليبية، كذلك جعلت هذه الحملة وما وقع بها من تقتيل وأسر وتخريب، حكام المماليك إلا يغفروا للصليبيين ما أصابوا به مدينة الإسكندرية وأهلها المسلمين فغرموا على الأخذ بالثأر منهم فى أقرب ما يكون ولكن ذلك لم يتم

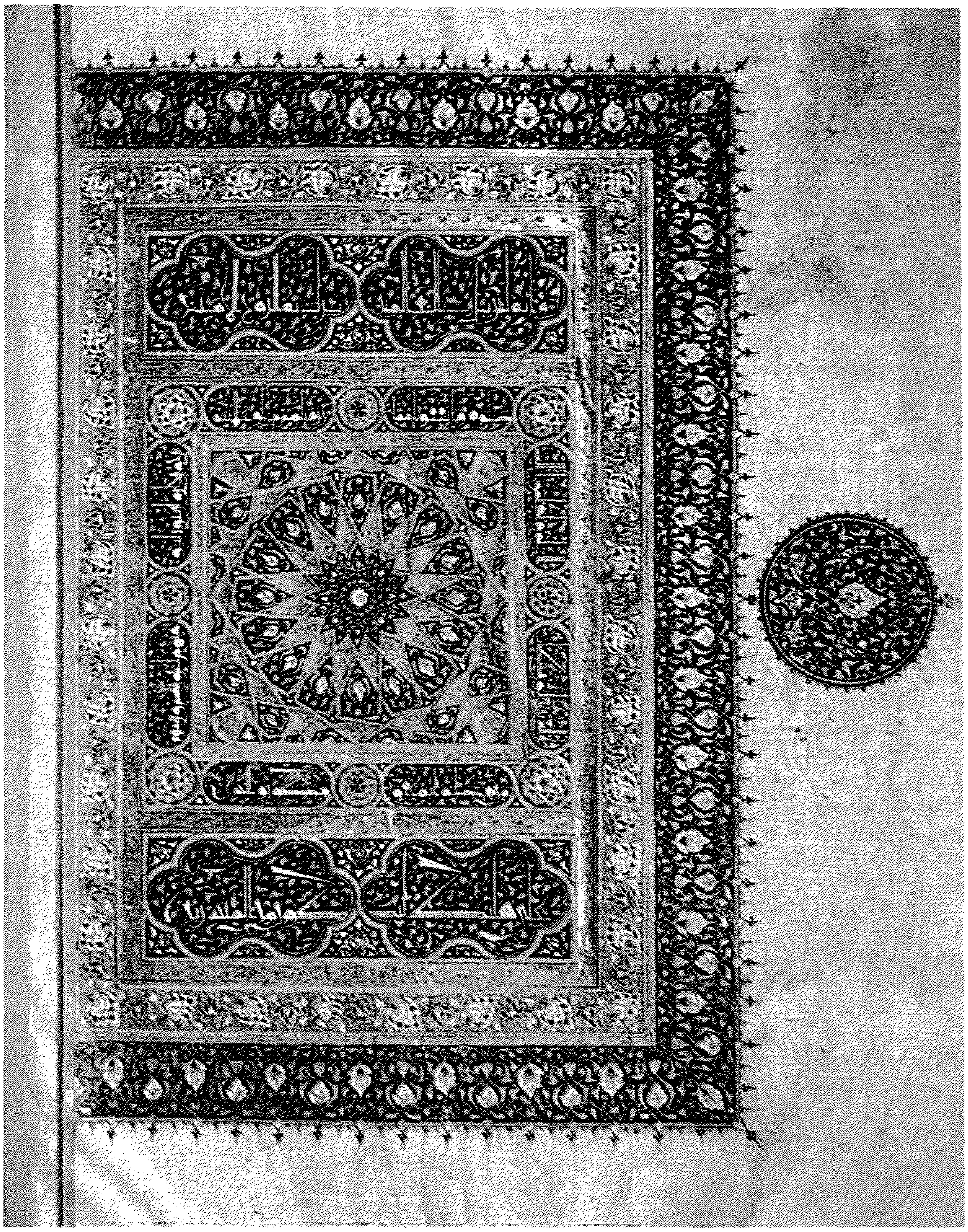

قرآن مذهب هدية
من السلطان
شعبان لأمه

على يد دولة المماليك البحرية التى كانت قد ضعفت آنذاك وتلفظ أنفاسها الأخيرة، لكنه تم على يد ورثتهم حكام دولة المماليك البرجية القوية التى حلت مكانها فى حكم مصر والشام.

السلطان الملك المنصور علاء الدين على (٧٧٨- ٧٨٣هـ/ ١٣٧٦- ١٣٨١م):

ولقد تولى بعد مقتل السلطان شعبان ابنه السلطان الملك المنصور علاء الدين على، وهو فى سن السابعة من عمره، يوم السبت ثالث ذى القعدة سنة ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م، وأبوه كان لا يزال حيا، وقد ظل هذا السلطان تحت وصاية أمراء المماليك البحرية، ولم يكن له حظ من السلطنة

سوى الاسم، وظل تحت الوصاية حتى وفاته وهو فى الثانية عشرة من عمره يوم الأحد ثالث عشر صفر سنة ٧٨٣هـ/ ١٣٨١م، فكانت مدة سلطنته الاسمية خمس سنين وثلاثة أشهر وعشرين يوما، وأقيم بعده أخوه السلطان الملك الصالح زين الدين حاجى.

السلطان الملك الصالح زين الدين حاجى (٧٨٣- ٧٨٤هـ/ ١٣٨١- ١٣٨٢م):

وهو الملك الصالح زين الدين حاجى بن شعبان بن محمد بن قلاوون، وهو آخر سلاطين المماليك البحرية، أقيم سلطاناً بعد موت أخيه علاء الدين على فى يوم الإثنين رابع عشر شهر صفر سنة ٧٨٣هـ/ ١٣٨١م، فقام بأمر الملك وتدبير أمور الدولة الأمير الكبير سيف الدين برقوق، حتى قام بخلعه عن السلطنة يوم الأربعاء تاسع شهر رمضان سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م، فكانت مدة سلطنته سنة وست وخمسين يوما، وبه انقضت دولة المماليك البحرية وأولادهم، ومدة سلطنتهم مائة وست وثلاثون سنة وسبعة أشهر وتسعة أيام، أولها يوم الخميس عاشر صفر سنة ثمان وأربعين وستمائة، وآخرها يوم الثلاثاء ثامن عشر شهر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة، وعدتهم أربعة وعشرون ذكراً ما بين رجل وصبى وامرأة واحدة، وأولهم امرأة وآخرهم صبى.

وهكذا نرى أنه قد ولى دولة سلاطين المماليك البحرية بعد وفاة السلطان الناصر محمد بن قلاوون أثنا عشر سلطانا من أبنائه وأحفاده، ومما يدل على اضطراب عهد أولئك الوارثين أن المدة الكاملة لحكمهم لم تزيد عن ٤٢ سنة تقريباً وهى مدة قصيرة بالنسبة لهذا العدد الكبير من السلاطين.

ومن دلائل الاضطراب كذلك أن نصف هؤلاء السلاطين الاثنى عشر قد أقيل من السلطنة وأنه لم يمت منهم ميتة طبيعية إلا اثنان.

وقد كان سوء أحوال البلاد فى أواخر عهد حكم سلاطين المماليك البحرية يستدعى قيام عناصر جديدة غير عناصر البحرية يتولى أمر البلاد لإصلاح حالها، وقد جاء ذلك بالفعل على يد دماء جديدة بحكام المماليك الجراكسة الذين أقاموا دولتهم التى عرفت بدولة المماليك البرجية.

الفصل الثانى
دولة سلاطين المماليك البرجية (الجراكسة)
(٧٨٤-٩٢٢هـ/١٣٨٢-١٥١٦م)

خلفت دولة المماليك البحرية دولة المماليك البرجية (الجراكسة) التى أسسها السلطان الملك الظاهر أبو سعيد سيف الدين برقوق، وهو أمير مملوكى جركسى، خدم فى دولة أبناء الناصر محمد بن قلاوون، واستطاع بفضل طموحه وقوة شخصيته أن يصل إلى منصب أتابك العسكر سنة ٧٨٠هـ/ ١٣٨٧م، وأصبح بذلك من أقوى أمراء المماليك فى عهد السلطان علاء الدين على.

وكان فى استطاعة برقوق أن يصبح سلطانًا عقب وفاة الطفل علاء الدين على ولكنه تمهل فى الأمر، حتى تنضج الكمثرى، لأنه كان هنالك معارضون لبرقوق من أمراء المماليك البحرية، فتظاهر برقوق، بسبب ذلك، بالزهد فى السلطنة، فجمع برقوق الخليفة والقضاة وكبار أمراء المماليك البحرية بقلعة الجبل وأعلن أمامهم جميعاً بأن المصلحة تتطلب إبقاء السلطنة فى بيت قلاوون، فاستدعى حاجى حفيد الناصر محمد وكان آنذاك صبياً لم يتجاوز العاشرة من عمره وأعلنه سلطانا سنة ٧٨٣هـ/ ١٣٨١م.

وكان لحاجى هذا الاسم من السلطنة وكان الأمر كله بيد برقوق الذى حين وجد الفرصة مهيأة له ليكون سلطاناً على البلاد، انتحل العُذر الذى سبق أن تزرع به الطامعون فى السلطنة من أمراء المماليك، وهو صغر سن السلطان القائم بالأمر وحاجة البلاد لرجل رشيد يضبط أمورها فى الداخل ويدفع عنها الخطر من الخارج.

لذلك عقد برقوق اجتماعاً كبيراً بالقلعة سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م، حضره الخليفة العباسى والقضاة والأمراء، ونهض كاتب السر القاضى بدر الدين، بتحريض من برقوق، ليعلن بأن الوقت قد ضاق وأن البلاد فى حاجة ماسة إقامة سلطان كبير تجتمع عليه كلمة الناس أجمعين فأجمع الحضور على خلع حاجى من السلطنة وإعلان برقوق سلطانا على البلاد، وتلقيبه بالملك الظاهر.

وهكذا بتولى برقوق الجركسى السلطنة ينتهى عهد حكم دولة المماليك البحرية ويبدأ حكم دولة المماليك البرجية الجركسية.

ولقد تألف سـلاطين دولة المماليك البرجيـة من ٢٤ سلطاناً، كان الظاهر برقوق أولهم، وكان الأشرف طومان باى آخرهم، وهو الذى تم الفتح العثمانى لمصـر والشام فى عـهـده. وقد جـاء ترتيب هؤلاء السـلاطين وسنى حكمـهم كالتالى :

سلاطين المماليك البرجية (الجراكسة)	تاريخ تولى هجرى	تاريخ تولى ميلادى
١- الظاهر سيف الدين برقوق	٧٨٤-٨٠١	١٣٨٢-١٣٩٨
٢- الناصر ناصر الدين فرج بن برقوق	٨٠١-٨٠٨	١٣٩٨-١٤٠٥
٣- المنصور عز الدين عبد العزيز بن برقوق	٨٠٨-٨١٥	١٤٠٥-١٤١٢
٤- العادل المستعين بالله أبو الفضل العباس	٨١٥	١٤١٢
٥- المؤيد سيف الدين شيخ المحمودى	٨١٥-٨٢٤	١٤١٢-١٤٢٠
٦- المظفر شهاب الدين أحمد بن المؤيد شيخ	٨٢٤	١٤٢٠
٧- الظاهر سيف الدين ططر	٨٢٤	١٤٢٠
٨- الصالح ناصر الدين محمد بن ططر	٨٢٤-٨٢٥	١٤٢٠-١٤٢١
٩- الأشرف سيف الدين برسباى	٨٢٥-٨٤١	١٤٢١-١٤٣٧
١٠- العزيز جمال الدين يوسف بن برسباى	٨٤١-٨٤٢	١٤٣٧-١٤٣٨
١١- الظاهر سيف الدين جقمق	٨٤٢-٨٥٧	١٤٣٨-١٤٥٣
١٢- المنصور فخر الدين عثمان بن جقمق	٨٥٧	١٤٥٣
١٣- الأشرف سيف الدين إينال	٨٥٧-٨٦٥	١٤٥٣-١٤٦٠
١٤- المؤيد شهاب الدين أحمد بن إينال	٨٦٥	١٤٦٠
١٥- الظاهر سيف الدين خشقدم	٨٦٥-٨٧٢	١٤٦٠-١٤٦٧
١٦- الظاهر سيف الدين بلباى	٨٧٢	١٤٦٧
١٧- الظاهر تمربغا	٨٧٢	١٤٦٧
١٨- الأشرف سيف الدين قايتباى	٨٧٢-٩٠١	١٤٦٨-١٤٩٦
١٩- الناصر محمد بن قايتباى	٩٠١-٩٠٤	١٤٩٦-١٤٩٨
٢٠- الظاهر قانصوه أمير آخور	٩٠٤-٩٠٥	١٤٩٨-١٤٩٩
٢١- الأشرف جانبلاط	٩٠٥-٩٠٦	١٤٩٩-١٥٠٠
٢٢- العادل سيف الدين طومان باى	٩٠٦	١٥٠٠
٢٣- الأشرف قانصوه الغورى	٩٠٦-٩٢٢	١٥٠٠-١٥١٥
٢٤- الأشرف طومان باى	٩٢٢-٩٢٣	١٥١٥-١٥١٦

السلطان الظاهر سيف الدين برقوق (٧٨٤- ٨٠١هـ/ ١٣٨٢- ١٣٩٨م):

يعتبر السلطان الظاهر برقوق أول سلاطين المماليك البرجية، وقد تسمت دولة المماليك الثانية بالبرجية لأن السلطان المنصور قلاوون كان قد اشترى أعدادا كبيرة من المماليك الجراكسة من بلاد الروس من منطقة خوارزم وجورجيا كان سكنها عنصر الأتراك الجركسى، وأسكنهم فى أبراج القلعة وسماهم المماليك البرجية. وكان عدد من اشتراهم قلاوون منهم ثلاثة آلاف وسبعمائة مملوك.

وكان برقوق أول حكام هذه الدولة وسلاطينها، وكان قد جلب من المنطقة الواقعة بين جورجيا وخوارزم بين بحر قزوين والبحر الأسود، وبيع ببلاد القرم، وجئ به إلى القاهرة فاشتراه الأمير المملوكى الكبير يلبغا الخاصكى وأعتقه وجعله من جملة مماليكه فعرف ببرقوق اليلبغاوى، واستطاع برقوق أن يقيم نفسه سلطاناً على البلاد سنة ٧٨٤ هـ. وأن يخلفه من بعده سلاطين الجراكسة الذين ظلوا على حكم مصر حتى الفتح العثمانى لها.

تيمور لنك فى معاركه

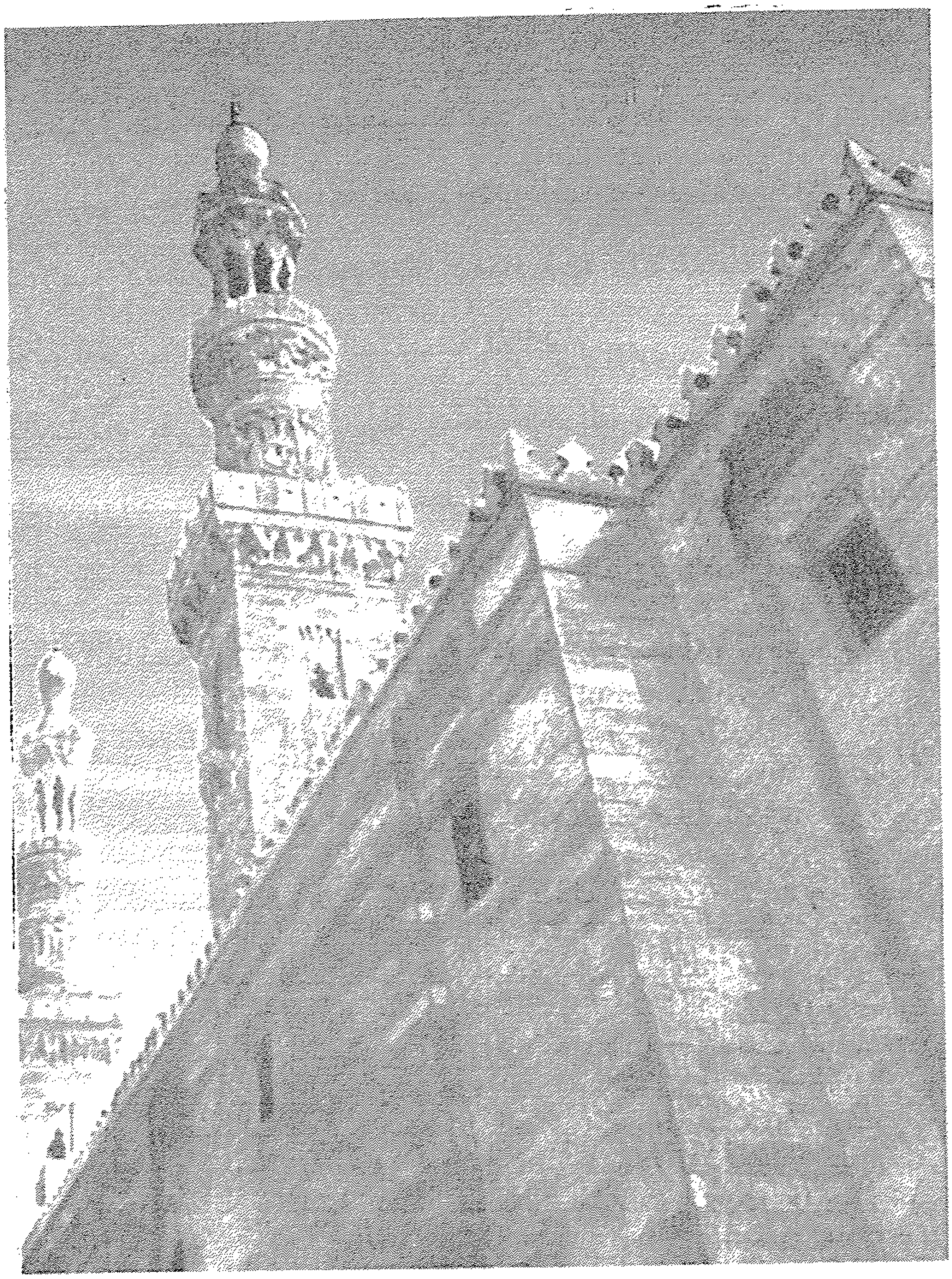

جامع السلطان برقوق

وكان أبرز مظاهر هذه الدولة الجركسية الاضطرابات والحروب الداخلية بين الأمراء بعضهم وبعض للوصول إلى كرسى الحكم، وتلك الفتن والثورات التى صاحبت هذا الصراع؛ لذلك نجد هذه الدولة تستبعد مبدأ الوراثة فى الحكم شأنها فى ذلك شأن دولة المماليك البحرية، وصار الحكم فيها للسلطان الأقوى، صاحب العدد الأكبر من المماليك.

ولقد كان من مظاهر هذه الدولة أيضا قصر مدة حكم سلاطينها، إلا العدد القليل منهم الذين حكموا لفترات طويلة مثل: برقوق وبرسباى، وجقمق وقايتباى والغورى.

وصارت مصر فى عهد دولة المماليك البرجية إمبراطورية كبرى، وصارت القاهرة عاصمتها قبلة العالم آنذاك وعاصمته. وتميز هذا العصر أيضا بالمعمار الهائل الفخم، ويشهد على ذلك مجموعات الآثار الهائلة التى خلّفها حكام هذه الدولة من مساجد ومدارس وقصور ووكالات وخانات وخوانق وأسبلة ومستشفيات وغيرها، ويشهد على الازدهار الحضارى لمصر فى عهدهم تلك التحف الكثيرة والمتعددة التى تتزين بها متاحف العالم فى الشرق والغرب.

وشهدت هذه الدولة المملوكية الموجة الثانية من هجمات المغول والتتار على الدولة الإسلامية بقيادة زعيمهم تيمور لنك وتصدى سلاطين المماليك البرجية لها كما تصدى سلاطين المماليك البحرية من قبل لهجمة المغول الأولى على العالم الإسلامى فى عهد مليكهم جنكيز خان والتى جاءت بقيادة قائده الكبير هولاكو.

كذلك تصدى هؤلاء المماليك الجراكسة للخطر العثمانى الذى استهدف مصر والشام واستطاع إنهاء حكمهم فيهما، والقضاء على دولتهم. وعاصرت دولة المماليك البرجية الهجمة الصليبية على بلاد المغرب الإسلامى والأندلس وإنهاء الحكم الإسلامى من بلاد الأندلس بعد أن دام فيها مدة ثمانية قرون. كما عاصرت هذه الدولة الحرب الاقتصادية الصليبية الشنعاء على بلاد المسلمين بعد أن توصل البرتغاليون، يقودهم العداء للمسلمين، إلى كشف طريق جديد للتجارة العالمية وللوصول إلى بلاد الهند والصين، وقيامهم بتعطيل الطريق التجارى القديم المعتاد بين البحرين المتوسط والأحمر، وذلك بقصد حرمان بلاد العالم الإسلامى، وبخاصة مصر زعيمة هذا العالم آنذاك، من عائد التجارة العالمية الذى هو سبب ثرائه الاقتصادى وأساس قوته العسكرية.

ولقد بدأ السلطان الظاهر برقوق حكمه بتثبيت قواعد سلطنته بمكافأة أعيان الدولة لا سيما أنصاره وأعوانه عند استقرار أمر السلطنة له سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م، فخلع على الخليفة والقضاة الخلع السنية وأقرهم فى مناصبهم، كما أقر الأمير البجاسى، وهو من كبار أعوانه، فى وظيفة رأس نوبة مع إضافة الأتابكية إليه، وهو المنصب الذى شغله برقوق قبل سلطنته، كذلك أقر برقوق الأمير جهاركس الخليلى أمير آخور كبير فى وظيفته، ورقى سودون الفخرى، حاجب الحجاب إلى منصب نيابة السلطنة فى مصر، ومنح إمرة مائة وتقدمة ألف ليونس النوروزى الدوادار، وعيَّن القاضى أوحد الدين عبد الواحد الحنفى كاتباً للسر بمصر.

ولقد امتلأ عهد حكم برقوق بالمؤامرات والفتن التى نجح أصحابها فى الإطاحة به وسجنه وعزله ثم عودته للحكم مرة ثانية. وكان أخشى ما يخشاه السلطان برقوق منذ أوائل سلطنته سطوة الأمير يلبغا الناصرى، نائب حلب، لأنه يعلم أن يلبغا غير راض عن سلطنته فى قرارة نفسه، وكان يلبغا قد قدم إلى مصر من حلب، أول المحرم سنة ٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م، مهنئاً لبرقوق بالسلطنة وقد بعث برقوق أتابك العساكر وبعض الأمراء لاستقباله واحتفى به وأقره على ولايته حلب وأغدق عليه الهدايا، وبعد إقامته بعشرة أيام بالقاهرة أذن له السلطان بالسفر إلى مقر وظيفته وخلع عليه (خلعة السفر)، وهى خلعة لا تكون إلا للكبار من الأمراء يخلعها السلطان لهم عند مغادرتهم الحضرة السلطانية.

ولم يلبث أن استشعر برقوق بخطورة يلبغا، فأراد أن يتخذ خطوة إيجابية ليحول دون قيامه ضده، فاستقدمه إلى القاهرة وعزله عن نيابة حلب وسجنه بالإسكندرية وصادر أمواله ثم عفا عنه بعد ذلك سنة ٧٨٩هـ/ ١٣٧م وأعاده إلى منصبه. وفى ذلك الوقت ثار ضد برقوق الأمير

منطاش، نائب ملطية، والتف حوله عدد كبير من التركمان. ورغم خطورة ثورة منطاش إلا أن السلطان لم يكن يخشاها بقدر خشيته من خروج يلبغا عليه، وكان يلبغا بعد أن أعاده السلطان إلى حلب، صمم على الثورة ضد السلطان، وقد حاول السلطان، هذه المرة، استدراجه إلى القاهرة والغدر به والتخلص نهائياً منه، إلا أن يلبغا تدارك مخطط السلطان فاعتذر عن الحضور إليه بحجة انشغاله بمواجهة ثورة نائب ملطية.

وبعد أن أعد يلبغا لأمر الثورة ضد السلطان عدته استولى على قلعة حلب وضم منطاش ورجاله إليه، وعظم أمره بدخول نواب الشام جميعهم تحت طاعته باستثناء نائب دمشق ونائب الكرك، وانضم إليه عربان الشام وعموم التركمان.

ولم يكن أمام برقوق سوى مواجهة هؤلاء الخارجين على حكمه فأرسل حملة من عنده إلى دمشق سنة ٧٩١هـ/ ١٣٨٩م انتهت بالهزيمة وبفرار عدد كبير من رجاله إلى قوات الثوار التى دخلت دمشق واحتلت قلعتها.

وبعد ان استولى يلبغا على كل بلاد الشام توجه بجيشه إلى القاهرة، ونجح فى الاستيلاء على القلعة بعد أن هرب برقوق منها متخفياً وأصبح يلبغا منذ سنة ٧٩١هـ/ ١٣٨٩م هو صاحب الأمر فى السلطنة المملوكية. وأراد يلبغا أن يصير سلطاناً لكنه وجد معارضة فى ذلك من ناحية بعض أمراء الشام وفى مقدمتهم منطاش، فاتفق الرأى أمام الخليفة المتوكل العباسى والقضاة والأعيان على إعادة السلطان حاجى إلى السلطنة بلقب جديد وهو المنصور بعد أن كان يلقب بالناصر فى سلطنته الأولى، وتولى يلبغا أتابكية العساكر وقام على الأثر بحركة تطهير بين مماليك برقوق بالقاهرة.

وقُبض على برقوق متخفياً فى منزل خياط وجيء به إلى يلبغا، فأكرمه فى أول الأمر ثم قام بحبسه فى الكرك، وأوصى نائب الكرك بإطلاق سراح برقوق إذا وقعت فتنة بينه وبين منطاش نائب ملطية. وبالغ نائب الكرك فى إكرام برقوق حتى أنه كان يأكل معه فى محبسه.

أما يلبغا، فاستبد بالأمور فى البلاد وحجر على السلطان حاجى وأخذ لنفسه أجود الإقطاعيات وأوفرها غلة ولم يعط حليفه منطاش إلا القليل؛ الأمر الذى أوغر صدره ضده فجمع قلة من مماليكه واستولى على بعض الخيول من القلعة وأخذ يلبغا على غرة وانضم العوام إليه، ولما رأى يلبغا إدبار أمره هرب من القاهرة إلى سرياقوس حيث قبض عليه هناك وحُمل سجينًا إلى الإسكندرية، وأصبح منطاش صاحب الأمر فى البلاد وتقرب من السلطان حاجى الذى عينه فى

منصب الأتابكية، لكن منطاش أخفق فى كسب مماليك برقوق الذين ساعدوه ضد عدوه يلبغا لعدم وفائه لهم بعهده بإخراج أستاذهم برقوق من سجنه ومحاولته قتل نحو مائتين منهم دفعة واحدة.

وفى تلك الظروف والأحوال المضطربة التى سادت البلاد بمصر والشام أفرج والى الكرك عن السلطان برقوق عملاً بوصية يلبغا له، واستطاع برقوق بمساعدة العامة الخروج من سجنه والتوجه إلى دمشق وجمع أعوانه هناك، وتوجه برقوق، بمن انضم إليه من الرجال لمقاتلة قوات منطاش عند منطقة شقجب، بظاهر دمشق وانتصر برقوق فى هذه المعركة وهرب منطاش وتقدم برقوق عائدًا إلى القاهرة وفى القلعة جددت البيعة لبرقوق، ثم أذن برقوق للسلطان حاجى بالإقامة فى القاهرة حتى مات مسمومًا على أيدى جواريه.

وهكذا نجح برقوق فى استعادة سلطنته وحكم مدة السلطنة الثانية حتى وفاته (٧٩٢-٨٠١هـ/ ١٣٩٠-١٤٠٠م) ورغم استقرار الأمور له إلا أن فترة هذه السلطنة الثانية قد امتلأت بالفتن الداخلية التى أخذت جلَّ وقته وجهده فى القضاء عليها، كذلك وقع فى هذه المرحلة الهجوم الثانى للمغول على البلاد الإسلامية بقيادة قائدهم الجبار تيمورلنك (٧٣٦- ٨٠٧هـ / ١٣٣٥- ١٤٠٤م).

الهجوم الثاني للمغول علي البلاد الإسلامية:

وتيمور لنك هو سليل أحد وزراء المغول ولد بإحدى قرى مدينة سمرقند من بلاد ما وراء النهر، والتحق فى أول أمره بخدمة حاكم سمرقند ثم نجح بعد ذلك فى حكم سمرقند وضم بلاد خوارزم وهرات وسجستان إليها، ثم ضم بلاد فارس وأذربيجان وجورجيا. كما أنه استطاع أن ينقض على دولة مغول القبجاق (القبيلة الذهبية) ويضم بلادها إلى ملكه. وواصل هجماته على بلاد العالم الإسلامى فاستولى على العراق وعلى معظم بلاد الشام ومن بينها مدن الرها وملطية وقد صحب حملات تيمورلنك على البلاد التى هاجمها واستولى عليها الدمار والخراب والقتل والإبادة الأمر الذى أفزع الناس، وأصابهم بالذعر والهلع وجعلهم يهربون من أمامه لا يألون، خوفًا من الوقوع فى قبضة يده ونهايتهم عليها.

ووصلت أخبار غارات تيمور إلى السلطان برقوق سنة ٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م، وعلم أن هذه القوات وصلت إلى مدينة الرها وخربتها وأنها تقدمت إلى ملطية الخاضعة للمماليك، عندئذ أرسل

السلطان برقوق حملة قصدت حلب وديار بكر لتلتقى هناك بجزء من قوات تيمورلنك. وبالفعل نجحت هذه الحملة فى هزيمة تلك القوات، وكان مرد هذا النصر إلى إنشغال تيمورلنك بحربه ضد مغول القبجاق فى حوض نهر الفولجا، كذلك لانشغاله بفتوحه فى الهند.

وبعد أن أنهى تيمورلنك حربه فى تلك البلاد تفرغ لحرب مصر، فأرسل سنة ٧٩٧هـ/ ١٣٩٥م، رسالة إلى برقوق تحمل نفس التهديد الذى سبق أن حملته رسالة هولاكو إلى السلطان قطز من قبل أيام حكم دولة المماليك البحرية. فرد عليه برقوق بنفس الجواب، الذى بعث به قطز وهو تحدى المغول والاستهانة بهم والاستعداد لحربهم ونزالهم. وقد ترجم برقوق القول بالفعل؛ فجهز جيشه فى العام التالى وقاده بنفسه متوجهاً به إلى حلب لملاقاة جيش تيمورلنك هناك، غير أن برقوق اكتشف عودة تيمولنك إلى بلاده بسبب بعض المشاكل التى عنت له هناك، فرجع برقوق بجيشه وتأجل اللقاء بينه وبين المغول آنذاك (وكفى الله المؤمنين القتال) وقد توفى برقوق سنة ٨٠١هـ/ ١٣٩٨م، تاركاً مهمة لقاء المغول من بعده لابنه السلطان فرج بن برقوق الذى تولى السلطنة من بعده.

وسبب موت برقوق إصابته بحمى شديدة الحرارة، وقد قام وهو على فراش الموت، يأخذ البيعة من بعده لأولاده: فرج ثم عبد العزيز ثم إبراهيم بحضور الخليفة المتوكل على الله وقضاة القضاة وسائر الأمراء وجميع أرباب الدولة، ثم كُتبت وصية السلطان بذلك، وأمر بأن تُعمَّر له تربة بالصحراء خارج باب النصر تجاه تربة الأمير يونس الدوادار، وأن يدفن فيها السلطان فى لحد تحت أرجل الفقراء وهم: الشيخ علاء الدين السيرامى الحنفى، والشيخ أمين الدين الخلواتى الحنفى، والشيخ عبد الله الجبرتى، والشيخ أبوبكر البجائى، والمجذوب أحمد الزهورى.

وقرر أن يكون الأمير الكبير أيتمش هو القائم بعده بتدبير ابنه فرج، وأن يكون وصيًا على تركته ومعه تغرى بردى بن يشبغا (والد المؤرخ أبى المحاسن ابن تغرى بردى) أمير السلاح.

وقد توفى السلطان برقوق ليلة الجمعة الخامس عشر من شوال وقد تجاوز الستين من العمر بعد أن حكم سلطانًا إحدى وعشرين سنة وسبعة وخمسين يوما، ودُفن حيث أوصى.

وعن صفاته وأخلاقه وإنجازاته فإنا نجملها فيما أفاض فيها المؤرخ ابن تغرى بردى المعاصر للسلطان برقوق، وهى أنه كان ملكًا جليلاً حازمًا شهمًا شجاعًا مقدامًا صارماً فطنًا عارفًا بالأمور والوقائع والحروب سيوسًا عاقلاً ثبتاً وعنده شهامة عظيمة ورأى جيد ومكر شديد وحدس صائب.

وقد كان شرهًا فى جمع المال مكثراً من المماليك محبًا لاقتناء الخيول والجمال. وكان يحب أهل الخير والصلاح، وكان كثير الصدقات والمعروف يبعث فى كل سنة إلى بلاد الحجاز ثلاثة آلاف

إردب قمحًا تفرق فى الحرمين، وقد أبطل عدة مكوس، وأنشأ بالقاهرة مدرسته التى لم يُعمَّر مثلها بين القصرين وجعل بها سبعة دروس لأهل العلم على المذاهب الأربعة. وعمّر جسراً على نهر الأردن بالغور فى طريق دمشق طوله مائة وعشرون ذراعا فى عرض عشرين ذراعا، وجدد خزائن السلاح بثغر بالإسكندرية وبنى بركة بطريق الحجاز، وجدَّد عمارة القناة التى تحمل ماء النيل إلى قلعة الجبل، وجدَّد عمارة الميدان من تحت القلعة وغرس فيه النخل، وعمَّر صهريجًا ومكتبًا يقرأ فيه أيتام المسلمين القرآن الكريم بقلعة الجبل وجعل عليه وقفًا، وعمَّر أيضًا بالقلعة طاحوناً وسبيلاً تجاه باب دار الضيافة تجاه القلعة.

السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق:

ذكر سلطنته الأولى (٨٠١-٨٠٨هـ/ ١٣٩٨- ١٤٠٥م):

هو السلطان الملك الناصر زين الدين أبو السعادات فرج بن السلطان الظاهر برقوق، الجركسى الأصل، المصرى المولد والمنشأ السلطان الثانى من سلاطين الجراكسة وأمه أم ولد رومية تسمى (شيرين)، ماتت فى سلطنته، وُلد سنة ٧٩١هـ/ ١٣٨٩م قبل خلع أبيه برقوق من السلطنة وحبسه بالكرك، وتولى السلطنة بقلعة الجبل صبيحة موت أبيه يوم الجمعة منتصف شوال سنة ٨٠١هـ/ ١٣٩٨م، بعهد من أبيه، ونُعت بالملك الناصر، ولما تم أمر الناصر فرج بعد أن دفن والده وصار الأتابك أيتمش مدبر ملكه جلس السلطان بدار العدل على عادة الملوك وخلع على الأمير أيتمش والأمير تغرى بردى والأمير أرغون شاه والأمير بيبرس الداوادر وعلى جميع أرباب الدولة.

وكان المفروض لو سارت الأمور طبيعية أن يقوم مجلس الوصاية على السلطان وهو طفل فى سن العاشرة أن يمارس مجلس الوصاية شئون السلطنة برئاسة الأمير أيتمش البجاسى مدبر المملكة بحكم منصبه، إلا أن المؤامرات ضد السلطان والمنافسات بينهم بدأت صبيحة تولى فرج السلطنة.

وقد بدت معارضة أمراء المماليك لتولى فرج السلطنة بامتناع الأمير سودون أمير آخور عن حضور موكب السلطان الجديد فكان مصيره السجن، وفى السنة التالية ثار الأمير تنم، نائب الشام وعضو مجلس الوصاية وأعلن العصيان وأطلق المسجونين بقلعة دمشق، وانضم إلى صفه نواب صفد وطرابلس وحماه وحلب والعربان والتركمان. كذلك ثار أيتمش على السلطان ووقف إلى

جانب نائب الشام، ولكن سرعان ما استطاع السلطان إخماد هذا التمرد والقبض على المشتركين فيه.

ولقد تلى حركات التمرد هذه ضد السلطان حركات أخرى فى مصر والشام، وكان أشدها تلك الثورة التى قام بها نائب غزة، والثورة التى قام بها الأمير شيخ المحمودى نائب طرابلس بمعونة العربان والتركمان. وبسبب ازدياد هذه الثورات التى قام بها أمراء المماليك الجراكسة ضد السلطان فرج حاول السلطان الخلاص منهم وعدم الاعتماد عليهم والاعتماد على من كان بالبلاد من أخواله من الروم، إلا أنه فشل فى ذلك فاضطر إلى الفرار من القلعة وترك العرش والاختباء فى بيت الأمير سعد الدين بن غراب سنة ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م، وعندئذ بايع الأمراء أخاه عبد العزيز بالسلطنة مع تولى بيبرس الأتابك تدبير الأمور لصغر سن السلطان.

السلطنة الثانية لفرج بن برقوق (٨٠٨- ٨١٥هـ/ ١٤٠٥- ١٤١٢م):

لما تولى بيبرس الأتابك تدبير الأمور فى البلاد والوصاية على السلطان الطفل ثارت غيرة يشبك الشعبانى الذى عاد دواداراً، كما كان فى السابق، وأخذ يتدبر عودة فرج إلى السلطنة وأخذ هو وابن غراب مع أنصار فرج يمهدون لعودته إلى السلطنة وبالفعل نجح أعوانه فى هزيمة أعوان أخيه عبد العزيز أواخر العام الذى اختفى فيه فرج وإعادة فرج سلطاناً على البلاد، وقد قام فرج بسجن أخويه عبد العزيز وإبراهيم اللذين ماتا فى السجن دون معرفة سبب وفاتهما.

وخلال السلطنة الثانية لفرج ثار ضده بجكم العوضى نائب حلب فى مقر ولايته سنة ٨١٠هـ/ ١٤٠٧م، وتلقب بالملك العادل وقام بالاستيلاء على معظم بلاد الشام من غزة إلى الفرات وصارت تابعة له، وخطب له من فوق المنابر وضرب السكة باسمه إشارة إلى استقلاله عن التبعية لدولة الناصر فرج، إلا أن هذا الأمير لقى مصرعه بعد شهرين من إعلانه العصيان ومحاولة الاستقلال على يد رجل من التركمان.

وما كاد السلطان فرج يتخلص من والى حلب، حتى ثار ضده نودوز نائب الشام وشيخ نائب طرابلس وحذا حذو بجكم فى محاولة الاستقلال، وحاول السلطان أن يفرق بين الثائرين وأن يستميل إليه أقواهما، فأصدر أمره بعزل نوروز عن نيابة الشام وإضافة تلك النيابة إلى شيخ، لكن محاولة السلطان فشلت فى استقطاب شيخ بل زادت شيخًا إمعانًا فى الخروج بعد أن تأكد له ضعف السلطان وقد قام شيخ ونوروز بقطع اسم فرج من الخطبة على منابر دمشق وأعمالها.

ولم يعد للسلطان من أمر سوى الخروج لحرب هذين الثائرين وسار بقواته متجها إلى الشام وما إن وصل إلى منطقة اللجون بظاهر دمشق إلا ووجد قوات الشام مستعدة له فدارت الدائرة

عليه سنة ٨١٥هـ/ ١٤١٢م وقُبض عليه وقتل أشنع قتله على يد جماعة من القداوية وظلت جثته ملقاة بمزبلة خارج دمشق ثلاثة أيام ثم دُفن بدمشق.

وكان فرج عند خروجه إلى الشام قد اصطحب معه الخليفة المستعين بالله والقضاة لتثبيت جنوده أمام أعدائه، لكن بعد قتل السلطان اجتمع الأمير شيخ مع الأمير نوروز بالخليفة المستعين والقضاة وكتبوا محضرا بخلع السلطان فرج وباختيار الخليفة سلطاناً على البلاد على أن يكون شيخ أتابك العسكر ومدبر المملكة بمصر ويكون الأمير نوروز نائب الشام والمتصرف المطلق فى أموره ووافق الخليفة على ذلك بعد تعهده بألا يقضى فى أمر من الأمور إلا بعد مراجعة الأميرين شيخ ونوروز.

هذا عن تطور الأحداث فى سلطنة الناصر فرج، أما عن حروب تيمورلنك فى عهد هذا السلطان، فمن المعلوم أن السلطان فرج تولى السلطنة فى نفس العام الذى توفى فيه أمير سيواس القاضى برهان الدين، وقد علم بذلك تيمورلنك وهو يحارب فى الهند، كما علم بأن أحمد بن أويس والى بغداد قد تغلب على الحامية التى كان تيمور قد تركها هناك واستعاد ولايته بمساعدة قره يوسف التركمانى.

ولذا عاد تيمورلنك فى العام التالى (٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م)، بجيوشه وعبر نهر جيحون متقدماً نحو العراق، وما إن أحس ابن أويس بذلك حتى ترك بغداد وفر مع قره يوسف إلى حلب، وقد تصدى نائب حلب ونائب حماه لقوات تيمورلنك الذى أحرز النصر عليهم، وقام تيمورلنك بالاستيلاء على سيواس والقضاء على حاميتها، وتابع تيمورلنك زحفه على بلاد دولة المماليك فاستولى على مرعش وعينتاب، وأوقع هزيمة ثقيلة بالجيش المملوكى عند حلب (ربيع أول ٨٠٣هـ/ أكتوبر ١٤٠٠م).

ووصلت أنباء هزائم الجيش المملوكى إلى مصر، فأصاب الناس الذعر والفزع مخافة أن يتقدم تيمورلنك لغزو مصر ويفعل فى أهلها ومدنها ما فعله فى أهالى ومدن البلاد التى قام بغزوها، لكن السلطان فرج تماسك وطالب الناس بالتماسك ونادى بالحرب وإعداد الجند للقتال، وخرج الشيخ سراج الدين عمر البلقينى شيخ الإسلام والقضاة الأربعة وبعض الأمراء ينادون فى شوارع القاهرة بالنفير العام والخروج لقتال التتار، وخرج السلطان فرج على رأس جيشه سنة ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م وبصحبته الخليفة المتوكل والقضاة الأربعة، وقابل الجيش المصرى جيش تيمورلنك خارج دمشق وأصيب الجيش المملوكى بخسائر فادحة، إلا أن تيمور لنك تجنبًا منه لشتاء

الشام القارس البرد أرسل يطلب التفاوض فى الصلح فقبل فرج ذلك وعاد إلى مصر فى أوائل العام التالى.

عمل السلطان فرج، بعد عودته إلى مصر، على إعداد قواته لملاقاة المغول وبينما كانت الاستعدادات العسكرية تجرى بمصر، امتنع أهل دمشق بمدينتهم وعبثًا حاول تيمورلنك فتحها عنوةً فأرسل بطلب الصلح مع أهل دمشق، ولقد استعمل تيمورلنك الحيلة والخديعة مع أهل دمشق حين طلبوا منه الأمان وأعطاه لهم، وفتحوا له باب دمشق الصغير لكنه غدر بعهده كعادته ودخلت جنوده دمشق تقتل وتخرب وتحرق وتعيث فى المدينة الفساد، وقام تيمور بمحاصرة قلعة دمشق حتى استسلمت وقيل أن تيمور ظل فى دمشق ولم يغادرها إلا يوم الثانى من شعبان سنة ٨٠٣هـ/ ١٩ مارس ١٤٠١، لإصابته بمرض الحمرة بعد إقامته بها مدة ثمانين يوما، وفى ذلك اليوم جاء رجاله له بنحو عشرة آلاف طفل مسلم كان أهاليهم فى الأسر لعله يطلق سراحهم، فنظر إليهم تيمور مدة ساعة ثم أمر رجاله بدهسهم تحت أرجل الخيل فماتوا جميعا، ولما لامه على فعلته الشنعاء هذه بعض قواده قال له: «إن قلبى ما نزلت فيه رحمة من أجلهم، أنا غضب الله فى أرضه يسلطنى على من يشاء من خلقه».

ولقد أخذ تيمورلنك معه، وهو يغادر دمشق خيرة أهلها ونسائها وسائر أرباب صنائعها إلى سمرقند، وفى طريق عودته من الشام وقعت معركة بين المغول والعثمانيين عند مدينة أنقرة سنة ٨٠٤هـ/ ١٤٠٢م، هزم فيها السلطان بايزيد العثمانى الذى أسره تيمور فى المعركة وحمله معه فى قفص إلى بلاده التى قفل إليها راجعاً، وما إن وصل تيمورلنك إلى سمرقند حتى توفى بها عام ٨٠٧هـ/ ١٤٠٥م.

وبعد وفاة تيمورلنك تنفست البلاد الصعداء من خطر التتار، وذلك لأن الانقسام والتمزق أصاب دولته من بعده، الأمر الذى أدى إلى ضعف قوة التتار بسبب النزاع الذى وقع بين أبناء تيمورلنك وأحفاده وزيادة الصراع بينهم على تولى الحكم، واستطاع «شاه رخ»، وهو أحد أبناء تيمورلنك الأقوياء، أن يحكم فى منطقة خراسان وفارس وكرمان، وأن يوطد حكمه فى تلك البلاد، واستطاع شاه رخ أن يسترد سمرقند وبلاد ما وراء النهر من يد ابن أخيه ميرانشاه، واتسعت سلطات شاه رخ حتى شملت جميع بلاد فارس (إيران الحالية) وقد طالت مدة حكم شاه رخ على بلاده وزادت عن الأربعين عاماً (من ٨٠٧- ٨٥٠هـ/ ١٤٠٤- ١٤٤٧م).

ولقد أظهر شاه رخ علاقته المسالمة مع دولة المماليك، وحاول التقرب والتصالح مع سلاطينها، بداية من عصر حكم السلطان المملوكى سيف الدين برسباى (٨٢٥- ٨٤١هـ/ ١٤٢١- ١٤٣٧م) ولقد أرسل شاه رخ سفيراً من عنده إلى برسباى يطلب منه بعض المؤلفات الدينية

والتاريخية، كذلك يستأذنه فى السماح له بإرسال كسوة الكعبة التى كان حكام مصر يقومون بإرسالها إلى مكة المكرمة منذ العهد الفاطمى، كذلك رواتب أمراء الحرمين الشريفين، وكانت كسوة الكعبة وإرسالها يمثل آنذاك مظهراً من مظاهر السيادة المصرية على بلاد الحجاز وحماية من سلاطينها للحرمين الشريفين، وقد رفض السلطان برسباى طلب شاه رخ، الذى عاود طلبه ثلاث مرات مع إرساله الهدايا للسلطان برسباى دون فائدة.

ولَمَّا يئس شاه رخ من استجابة السلطان المملوكى لمطلبه بصدد كسوة الكعبة أرسل يطلب منه ما هو أكثر من ذلك، أرسل يطلب منه إقامة الخطبة له وضرب اسمه على السكة إلى جانب اسم السلطان المملوكى، ورد برسباى على هذه الرسالة بإهانة سفير التتار وتمزيق الخلعة التى أرسلها له صحبة الرسالة فتوترت بذلك العلاقة بين الجانبين المملوكى والمغولى، واستمرت على توترها حتى وفاة السلطان برسباى سنة ٨٤١هـ/ ١٤٣٧م.

وفى عهد السلطان سيف الدين جقمق (٨٤٢- ٨٥٧هـ/ ١٤٣٨- ١٤٥٣م)، تحسنت العلاقات بين المغول والمماليك وتبادل السلطان المملوكى وشاه رخ المراسلات الطيبة والهدايا القيمة وقد سمح السلطان جقمق لشاه رخ بإرسال كسوة الكعبة سنة ٨٤٨هـ/ ١٤٤٤م، على أن توضع كسوته أسفل كسوة السلطان المملوكى على الكعبة، ووافق شاه رخ سنة على ذلك، وظلت العلاقات طيبة بين جقمق وشاه رخ حتى وفاة شاه رخ سنة ٨٤٩هـ/ ١٤٤٥م، وقد استمرت هذه العلاقة الطيبة بين سلاطين المماليك البرجية وحكام المغول طوال بقية العهد المملوكى.

السلطان المؤيد شيخ المحمودى (٨١٥- ٨٢٤هـ/ ١٤١٢- ١٤٢٠م):

وهو السلطان المؤيد أبو النصر شيخ المحمودى وهو أحد مماليك الظاهر برقوق، وعرف بالمحمودى نسبة إلى التاجر الخواجا محمود شاه، الذى باعه للسلطان برقوق وهو فى سن الثانية والعشرين تولى السلطنة يوم الإثنين أول شعبان سنة ٨١٥هـ/ ١٤١٢م بعد خلعه الخليفة المستعين عن السلطنة، الذى كانت سلطنته سلطنة اسمية، وقام بسجنه فى برج القلعة ثم حمله إلى الإسكندرية فسجنه بها. ويعتبر عهد المؤيد شيخ عهداً هادئًا من حيث الدسائس والفتن قياسًا إلى عهد السلطان برقوق وابنه فرج، ولم يخرج عن طاعة المؤيد شيخ سوى نوروز المتمكن فى بلاد الشام، والذى رفض أول الأمر أن يُقبِل الأرض بين يديه أو يخطب باسمه من فوق المنابر ولكنه أبقى الخطبة للخليفة المستعين، كذلك رفضه ضرب السكة باسمه، وقد أدى ذلك إلى قيام السلطان بحربه فى السنة التالية والتخلص منه بالقتل، كذلك فقد خرج المؤيد شيخ مرتين أخريين إلى بلاد

الشام للقضاء على ثورات بعض النواب هناك ونجاحه فى ذلك، هذا ولم يزل المؤيد شيخ سلطانا على مصر والشام حتى وفاته يوم الإثنين ثامن المحرم سنة ٨٢٤هـ/ ١٤٢٠م، فكانت مدة سلطنته ثمانى سنين وخمسة أشهر وستة أيام.

فأقيم من بعده ابنه السلطان الملك المظفر شهاب الدين أبو السعادات أحمد، وعمره سنة واحدة ونصف، فقام بأمره الأمير (ططر)، وفرّق ما جمعه المؤيد من الأموال، وخرج بالمظفر يريد محاربة الأمراء بالشام، فظفر بهم، وبعد ذلك قام بخلع المظفر من السلطنة الذى كانت مدة سلطنته ثمانية أشهر تنقص سبعة أيام، وتولى السلطنة مكانه باسم السلطان الملك الظاهر أبى الفتح ططر، وهو أحد مماليك الظاهر برقوق، جلس على تخت السلطنة بقلعة دمشق فى يوم الجمعة تاسع عشر شعبان سنة ٨٢٤هـ/ ١٤٢٠م، وقدم إلى القلعة (قلعة الجبل) وهو موعوك البدن فى يوم الخميس رابع شوال فثقل عليه مرضه من يوم الإثنين ٢٢ فى الشهر حتى وفاته يوم الأحد ١٤ ذى الحجة، فكانت مدة سلطنته ثلاثة أشهر ويومين. فأقيم من بعده ابنه السلطان الملك الصالح ناصر الدين محمد، وعمره نحو عشر سنين، فقام بأمره الأمير برسباى الدقماقى، ثم خلعه بعد أربعة أشهر وأربعة أيام وقام من بعده السلطان الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر برسباى، أحد مماليك الظاهر برقوق الذى تولى عرش السلطنة يوم الأربعاء ثامن شهر ربيع الآخر سنة ٨٢٥هـ/ ١٤٢٢م.

ومن الملاحظ فى تاريخ سلاطين المماليك أن الفترة من بعد وفاة السلطان المؤيد شيخ المحمودى فترة تكررت فيها الفتن والمنافسات، والظاهرة المميزة لهذه الفترة حتى نهاية العصر المملوكى كثرة ثورات (الجلبان) الذين يجلبهم كل سلطان جديد من المماليك، بسبب أن هؤلاء الجلبان كانوا فى معظمهم عند شرائهم لم يكونوا أطفالاً بل جاوزوا سن البلوغ، فلم يلبثوا حتى صاروا مصدر قلق وفوضى وشغب، بل صاروا خطراً يهدد حياة السلاطين أنفسهم. ولقد كثر خروج هؤلاء الجلبان مما حمل بعض عظماء سلاطين هذه الفترة على العمل على ترضيتهم والتنازل على حكمهم، وقد جاءت فتن هؤلاءالجلبان الداخلية فى فترة وقعت فيها أحداث عالمية خارجية كبرى كان لها تأثيرها المباشر على دولة المماليك الكبرى، ومن هذه الأحداث وقوع الكشوف الجغرافية وتزايد نفوذ القوة العثمانية.

ومن الملاحظ أيضًا أن النزاع على السلطنة فى تلك الفترة كان سريعًا وحاسماً بدليل سرعة تغير حكم السلاطين وقصر مدة حكم غالبيتهم. ففى فترة لم تتجاوز أربعة عشر شهرا تولى حكم البلاد أربعة سلاطين، وفى فترة لا تزيد عن العامين تولى السلطنة أربعة سلاطين آخرين،ومن بين هؤلاء وهؤلاء من حكم دون الشهرين، بل إن منهم من لم تطل سلطنتـه عن ثلاثة أيام، على أن

هذا لا ينفى وجود عهود حكم سلاطين طويلة، مثل عهد خشقدم وجقمق وبرسباى وقايتباى.

السلطان الأشرف سيف الدين برسباى (٨٢٥-٨٤١هـ/ ١٤٢١-١٤٣٧م):

هو السلطان الأشرف سيف الدين أبو النصر برسباى، أحد مماليك السلطان الظاهر برقوق، كان وصياً على السلطان الطفل الصالح ناصر الدين محمد، وقام بخلعه عن السلطنة، بحجة صغر سنه، وتولى السلطنة مكانه يوم الأربعاء ثامن شهر ربيع الآخر سنة ٨٢٥هـ/ ١٤٢٢م، وقد حكم برسباى ما يزيد عن ستة عشر عاماً حتى وفاته ثالث عشر ذى الحجة سنة ٨٤١هـ/ ١٤٣٨م، وكانت مدة سلطنته ست عشرة سنة وتسعة شهور.

وتعتبر مدة حكم السلطان برسباى مدة طويلة، لم يتفوق عنه فى طول مدة حكمه من سلاطين الجراكسة سوى السلطان الأشرف قايتباى، ولقد اتبع السلطان برسباى سياسة احتكار الدولة لسلع كثيرة وخصوصاً التوابل التى كانت من أهم سلع التجارة العالمية بين الشرق والغرب، الأمر الذى أضر بالتجار والناس وخاصة تجار الكارم وأدى إلى سوء الحالة الاقتصادية وارتفاع الأسعار، إلا أن عهد هذا السلطان تميز بالأمن والأمان وقلة الفتن والمؤامرات مما جعل السلطان برسباى يتفرغ للقيام بالتصدى للحرب ضد الصليبيين.

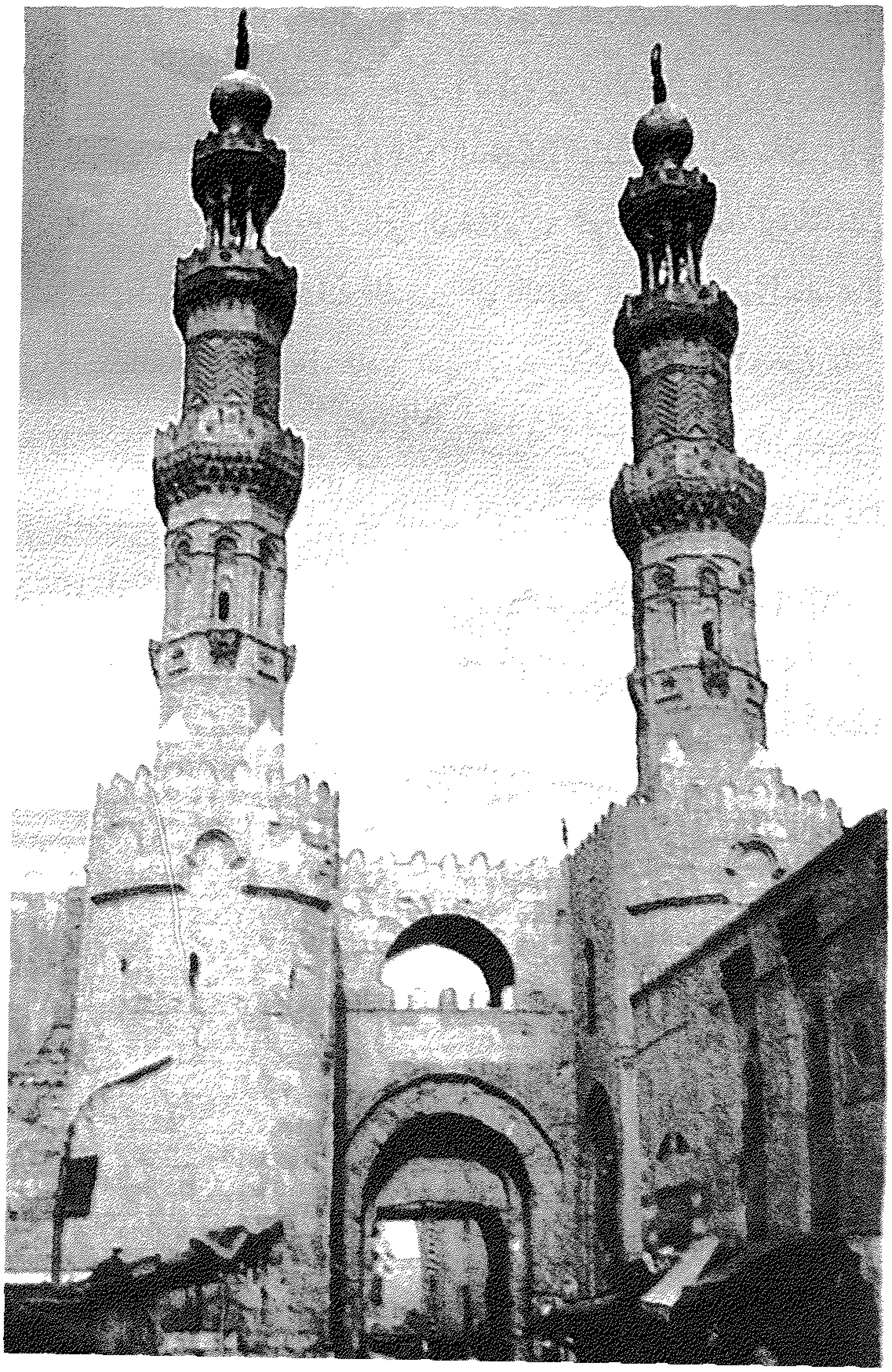

مئذنتا مسجد المؤيد شيخ

وبينهما باب زويلة

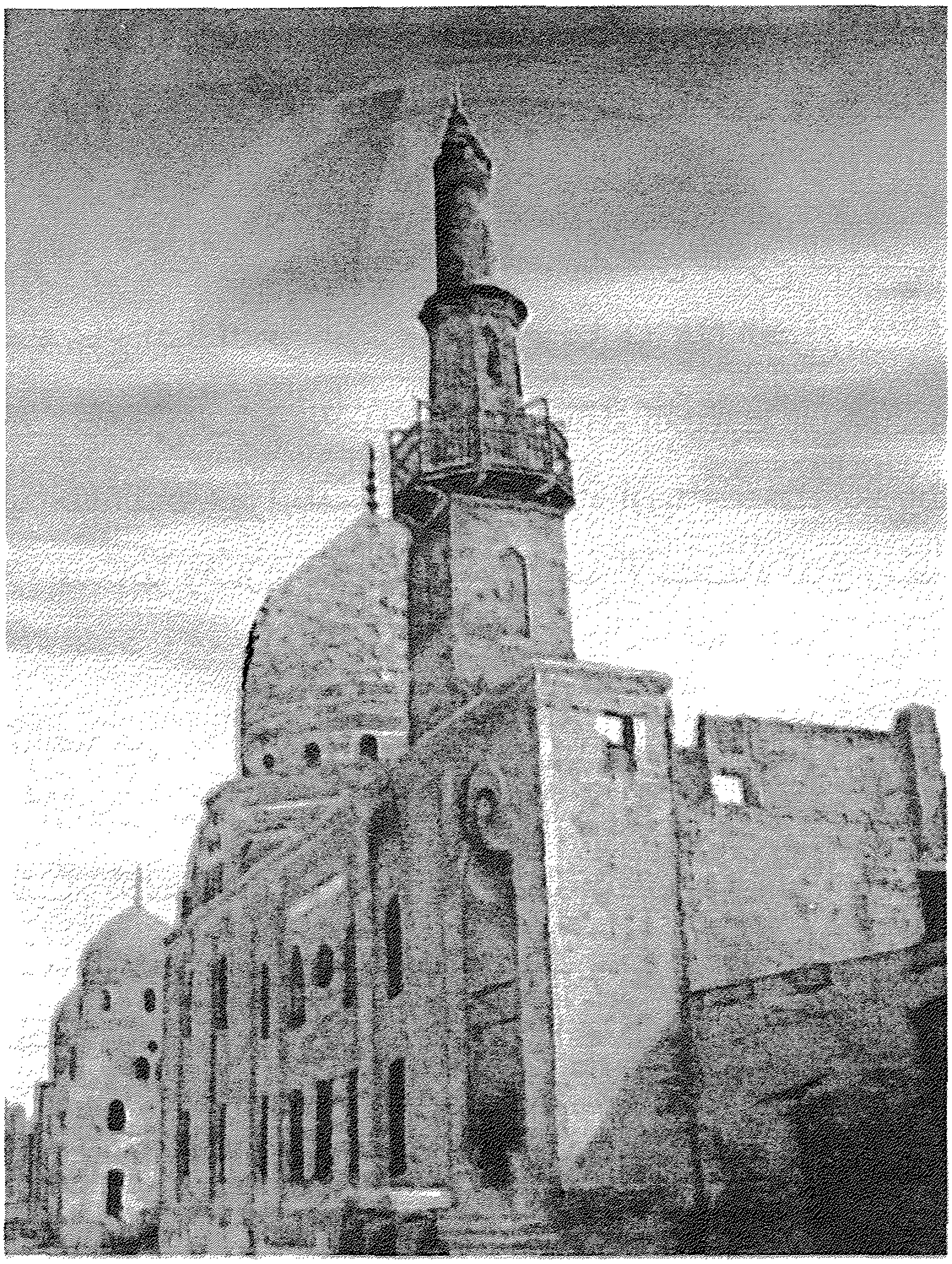

مئذنة مسجد برسباى

ولقد ساءت فى عهد هذا السلطان علاقة مصر المملوكية مع الصلبيين فى الوقت الذى تحسنت فيه علاقتها بمغول فارس فى عهد حكم شاه رخ، ابن تيمورلنك. وكان الصليبيون بعد هزائمهم المتلاحقة واندحار حملاتهم العسكرية المنظمة ضد مصر فى عهد سلاطين المماليك البحرية قد استعاضوا عنها بالقيام بعمليات تخريب واسعة للموانى المصرية والشامية على يد متجرمة البحر الكتلان بالتعاون مع القبارصة وفرسان الاسبتارية بجزيرة رودس، وذلك بقصد ضرب الحركة التجارية للموانى الإسلامية فى كل من مصر والشام.

ولقد ردت مصر المملوكية فى عهد برسباى على هذا العمل الصليبى العدوانى الجديد بإنزال غزوات انتقامية على جزيرتى قبرص ورودس، معقل هؤلاء القراصنة الصليبيين وقد نجحت تلك الغزوات فى استيلاء المسلمين فى ذلك العهد على جزيرة قبرص سنة ٨٣٠هـ / ١٤٢٦م، وتهديد جزيرة رودس وإتعابها فى عهد السلطان جقمق. وقد استمرت جزيرة قبرص، منذ ذلك الوقت، تابعة لمصر حتى زوال دولة سلاطين المماليك، وظلت محاولات المسلمين فى إسقاط رودس فى أيديهم ونجحوا فى ذلك سنة ٩٢٩هـ/ ١٥٢٢م حين خضعت للسيادة العثمانية، وانتقل مركز فرسان الاستبارية الصليبيين منها إلى جزيرة مالطة فى البحر المتوسط، حيث ظلوا هنالك إلى أيام مجىء نابليون بونابرت بحملته على مصر سنة ١٧٩٨م .

ولقد حاول الصليبيون فى القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى، إدخال الحبشة المسيحية إلى جانبهم فى الحرب ضد مصر المملوكية، وذلك بالتفكير فى إرسال حملة صليبية مزدوجة تطبق على مصر من الشمال والجنوب براً وبحراً فى وقت واحد، لكن هذا الحلف الصليبى المقترح لم يكتب له الظهور، بسبب نجاح المماليك فى تحييد الحبشة وعزلها عن هذا الصراع.

كذلك ظهرت على مسرح الأحداث آنذاك الدولة العثمانية إلى جانب القوة الإسلامية، وصارت منذ بداية هذا القرن خطرًا داهماً بات يهدد بلاد أوربا جميعها، بعد أن ضمت هذه الدولة بلاد البلقان إلى ممتلكاتها وصارت جيوشها على أهبة الاستعداد لغزو وسط أوربا.

واشتدت الحروب الصليبية أيضا على بلاد المغرب الإسلامى والأندلس، ونجح الصليبيون هناك فى إنهاء الحكم الإسلامى فى الأندلس بعد أن دام فيها مدة ثمانية قرون كاملة، كما دفعت هذه الروح الصليبية البرتغاليين للقيام بكشف طريق رأس الرجاء الصالح كبديل لطريق البحرين المتوسط والأحمر، وذلك بقصد حرمان بلاد العالم الإسلامى، وبخاصة مصر، من عائد التجارة العالمية الذى هو أساس ثرائها الاقتصادى وقوتها العسكرية.

الظاهر سيف الدين جقمق (٨٤٢-٨٥٧هـ / ١٤٣٨ - ١٤٥٣م):

بعد وفاة برسباى بايع أمراء المماليك ابنه العزيز يوسف بالسلطنة، وكان فى الرابعة عشر من عمره، فلم يستطع الاحتفاظ بالعرش أمام نفوذ أقوى الأمراء المماليك عندئذ وهو سيف الدين جقمق، الذى كان قد تولى الوصاية والحجر عليه، وقد قام أمراء المماليك بعزل العزيز يوسف بن برسباى وتولية جقمق السلطنة بعد شهور قليلة.

وقد تولى جقمق السلطنة سنة ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م، وهو يكون بذلك السلطان الحادى عشر من سلاطين الجراكسة، وقد استمر فى السلطنة خمسة عشر عاما كاملة وتعد فترة حكمه من فترات حكم سلاطين المماليك الطويلة. وقد كان حكم جقمق معتدلاً قياساً بحكم برسباى، وقد عرف جقمق بتدينه وورعه وتصديه للفساد ولكل ما حرمته الشريعة والدين، وكان يحاول أن يتشبه فى حكمه بحكم الخليفة عمر بن الخطاب والخليفة الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز.

وبرغم نزاهة حكم جقمق إلا أنه تعرض فى أوائل سنى حكمه للثورات التقليدية التى عرفها عصر سلاطين المماليك، وقد ثار ضده أتابك العسكر الأمير المملوكى قرقماش الشعبانى، كما ثار

ضده نائب دمشق فى بلاد الشام، كما وقعت فى عهده فتنة قام بها العبيد السودان فى منطقة الجيزة سنة ٨٤٦هـ / ١٤٤٢م، وقد نجح جقمق فى القضاء على تلك الثورات وذلك بالقبض على أتابك العسكر وسجنه والقبض على نائب الشام وقتله ، أما عن فتنة العبيد السودان الذين تمردوا فى منطقة الجيزة وقاموا بنهبها، وأقاموا عليهم سلطانا من بينهم غير معترفين بالسلطان المملوكى وساروا به فى موكب صاخب وهو يحمل العلم السلطانى، فوجه جقمق لهم رجاله الذين نجحوا فى تفريقهم وقتل وأسر عدد كبير منهم، وبيعت أعداد من أسراهم فى سوق النخاسين بالقاهرة بأسعار زهيدة، وأرسل الباقون فى سفينة ليباعوا فى بلاد السلطان العثمانى.

ويمتاز عهد حكم السلطان جقمق بتحسن العلاقات بين المغول ودولة المماليك فى عهد تولى شاه رخ بعد تيمورلنك حكم الدولة التيمورية المغولية، كما أسلفنا، كذلك نجاح جقمق فى غزو جزيرة رودس التى كانت قاعدة للفرسان الاسبتارية من الصليبيين منذ سنة ٧١٠هـ/ ١٣١٠م ومركز نشاطهم ضد المسلمين فى شرق حوض البحر المتوسط. ولقد أرسل جقمق ثلاث حملات ضد رودس فى سنوات ٨٤٤هـ/ ١٤٤٠م، ٨٤٧هـ/ ١٤٤٣م، ٨٤٨هـ / ١٤٤٤م ، وكانت حملة جقمق الثالثة على رودس هى أخطر هذه الحملات ، وقد حاصرت مدينة رودس عاصمة الجزيرة، مدة أربعين يوماً لكن المدينة صمدت للحصار بسبب مناعتها واستبسال رجال الاسبتارية فى الدفاع عنها ووصول الإمدادات الأوربية فى البحر لها. وقد انتهت العلاقة بين السلطان المملوكى وفرسان رودس بالصلح والهدنة، إلا أن العلاقة بين الطرفين الإسلامى والصليبى ظلت بين مد وجزر بين الهدوء والعداء طوال القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى.

وتوفى السلطان جقمق سنة ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م ، بعد أن عهد بالسلطنة من بعده، وهو على فراش الموت لابنه فخر الدين عثمان الذى تولى السلطنة بالفعل بعد وفاة أبيه لمدة ثلاثة وأربعين يوماً، وقام الجيش بالثورة ضده وعزله على إثر توزيع النفقة عليهم بدنانير ذهبية مخلوطة، وقام قواد الجيش بسجنه وتكليف أتابكه الأمير المملوكى الأشرف سيف الدين إينال بتولى السلطنة مكانه، وذلك فى نفس العام.

السلطان الأشرف سيف الدين إينال (٨٥٧هـ - ٨٦٥هـ / ١٤٥٣-١٤٦٠م):

حكم السلطان الأشرف إينال مصر والشام ثمانى سنوات (٨٥٧-٨٦٥هـ/ ١٤٥٣-١٤٦١م)، ولم يتميز حكمه بشىء يذكر سوى خروج الجند الجلبان عليه وتمردهم وكثرة اعتدائهم على الناس ونهبهم المتاجر والأسواق، وتماديهم فى السلب والنهب حتى من مخازن الأمراء

أتفقهم، وقد ثار الجلبان ضد السلطان سبع مرات خلال حكمه الذى لم يزد عن الثمانى سنوات، بمعدل ثورة واحدة فى كل عام، وإضافة إلى وقوع عدة مؤامرات ضد السلطان، شارك فى واحدة منها سنة ٨٥٩ هـ / ١٤٥٥م الخليفة حمزة، وقد قام أمراء المماليك بعزل إينال حين فشل فى ضبط الأمور فى البلاد وأجبروه على التنازل عن السلطنة لإبنه أحمد فلم يكن أمامه من بد إلا التنازل، غير أن ابنه الذى تولى السلطنة باسم المؤيد شهاب الدين أحمد سنة ٨٦٥هـ/ ١٤٦١م، لم يبق سوى أربعة شهور فى السلطنة قام أمراء المماليك بعزله بعدها وتولية السلطنة للأتابك خشقدم الرومى فى نفس العام.

السلطان الظاهر سيف الدين خشقدم (٨٦٥-٨٧٢هـ/ ١٤٦٠-١٤٦٧م):

حكم السلطان خشقدم البلاد مدة سبع سنوات وتميز عهد حكمه بالهدوء، ولم يعكر صفو هدوئه سوى وصول جانم بك، نائب الشام إلى مصر بناء على دعوة سابقة من أمراء المماليك الذين خلعوا السلطان الطفل أحمد بن إينال، للقدوم لتولى السلطنة، إلا أنه لما تأخر عليهم فى القدوم إلى القاهرة قاموا بتولية الأتابك خشقدم سلطانا، وعند وصول جانم بك استطاع خشقدم إقناعه بالعودة إلى الشام واستمراره فى نيابته فعاد دون ممانعة. وقد أرسل خشقدم إلى جانم بك من يقبض عليه وهو فى طريقه إلى بلاده وقتله وبذلك تخلص غيلة من شره، وقد فعل خشقدم نفس الشيء مع جانى بك الدوادار الكبير بالقلعة حين أحس بخطره على سلطنته فتخلص منه بالقتل وقام بتشتيت مماليكه المتمنعين فى القلعة وبذلك تخلص خشقدم من مناوئيه وحكم البلاد فى هدوء حتى وفاته عام ٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م.

وقد تولى السلطنة بعد عزل خشقدم اثنان من أمراء المماليك فى سنة واحدة (٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م) لم يحكم أى منهما إلا لعدة شهور وهما : السلطان الظاهر سيف الدين بلباى، والسلطان الظاهر تمربغا، وقد اختار أمراء المماليك الأمير بلباى الملقب بالمجنون ليخلف خشقدم بعد وفاته، وقد كان ضعيف الشخصية اختاره الأمراء بسبب ذلك لكى يكون ألعوبة فى يدهم ينفذون عن طريقه ما يريدون، وقد كان بلباى آلة فى يد الدوادار الكبير وزعيم المماليك الخشقدمية خير بك، وهو الذى رشحه لمنصب السلطنة ووافقه بقية الأمراء على ذلك، وأصبح بلباى لا يتصرف فى أمر من الأمور دون أخذ الإذن من خير بك.

وقد انقسم المماليك الجلبان آنذاك إلى فريقين، فريق عُرف بالخشقدمية وهم أتباع ومماليك السلطان خشقدم، والفريق الثانى عُرف بالمؤيدية وهم مماليك المؤيد إينال، ووقع الصراع بين

الفريقـين إلى أن اتفقا على عزل بلبـاى وسجنه وتولية السلطنة لأتابك العـساكر تمربغا الرومى بعد شهرين من سلطنة بلباى. ورغم ما تميز به تمربغا من كفاءة فى فنون الفروسية إلا أنه عجز عن إرضاء المماليك الخشقدمية الذين، قاموا بعد ٥٨ يوما من حكمه بالقبض عليه وسجنه بتدبير من زعيمهم الدوادار خير بك.

وكان خير بـك طامعـاً فى السلطنة منذ تولى بلبـاى السلطنة، فجاءته الفرصة بعد سجن تمربغا، فـجلس على سرير الملك بالقلعة خلال الليلة التى تم فيها القبض على تمربغا وسـجنه. وتلقب خيربك بلقب الملك الظاهر، وقبَّل له أنصاره الأرض بين يديه وتصرف تصرف السلاطين الفعليين، إلا أن الظاهر لم يستمر فى السلطنة سوى لليلة واحدة، وكان اعتـلاؤه العرش فى المساء وتمت ازاحته فى الصـباح التالى، مما جعل المعـاصرين له يطلقون عليه لقب (سلطان ليلة).

وقد قام أمراء المماليك بعزله بزعامة الأتابك الأشرف سيف الدين قايتباى الذى حين علم بما يجرى فى القلعـة أسرع يتـصل ببعض فئـات المماليك واستـمالتهم لصـفه واعدًا إيـاهم بالمكافأة، فاتفقت كلمتهم جميعا على خلع تمربغا وخيـر بك وسلطنة قايتباى، وصعد قايتباى إلى القلعة فى الحال مع طلـوع النهار مما أدى إلى اضطراب خـير بك الذى أخـرج تمربغا من سجـنه وأعاده إلى العرش. ووقعت مناوشات يسيرة بين جنود كلا الفريقين وانتهى الأمر بسيطرة قايتباى وخلع تمربغا وتولية قايتباى السلطنة بحضور الخليفة، وقد قام قايتباى بمراعاة حرمة تمربغا فأكرمه بتركه يعيش حراً طليقاً منفياً فى ثغر دمياط، أما خير بك فكان مصيره الحبس فى القلعة.

السلطان الأشرف سيف الدين قايتباى (٨٧٢-٩٠١هـ / ١٤٦٨-١٤٩٦م):

يُعتبر عهـد حكم السلطان قايتباى من أبرز عهود حكم سلاطين المـماليك عامة، والمماليك الجراكـسة على وجه الخصـوص، ولم يكن ذلك لطول المدة التى حكم فيـها قايتـباى سلطانا على مصر والشام مدة ٢٩ عاماً، ولكن أيضا لكمال شخصيته وحسن تدبيره وقيادته وقوة دولة المماليك فى عهده وانتـصاراته الرائعة التى حققـها على العثمانيـين والتركمان. وقد أثبت السلطان قـايتباى طوال حكمه أنه كـان أقدر وأشجع سـلاطين المماليك فى ساحـة القتال وأكـثرهم سيـاسة ودراية بشؤون العالم الخارجى وأمثلهم فى الحكمة والتدبير ومواجهة الصعاب، وأشدهم جرأة فى التصدى للمشاكل الكبرى التى هددت دولته وسلطانه.

وكانت المشكلة الأولى التى واجهت دولة المماليـك فى ذلك العصر هى مشكلة الخطر الذى هدد الدولة وأطرافهـا الشمالية فى شـمال العراق والشام وشـرق آسيا الصغـرى من جانب الدول

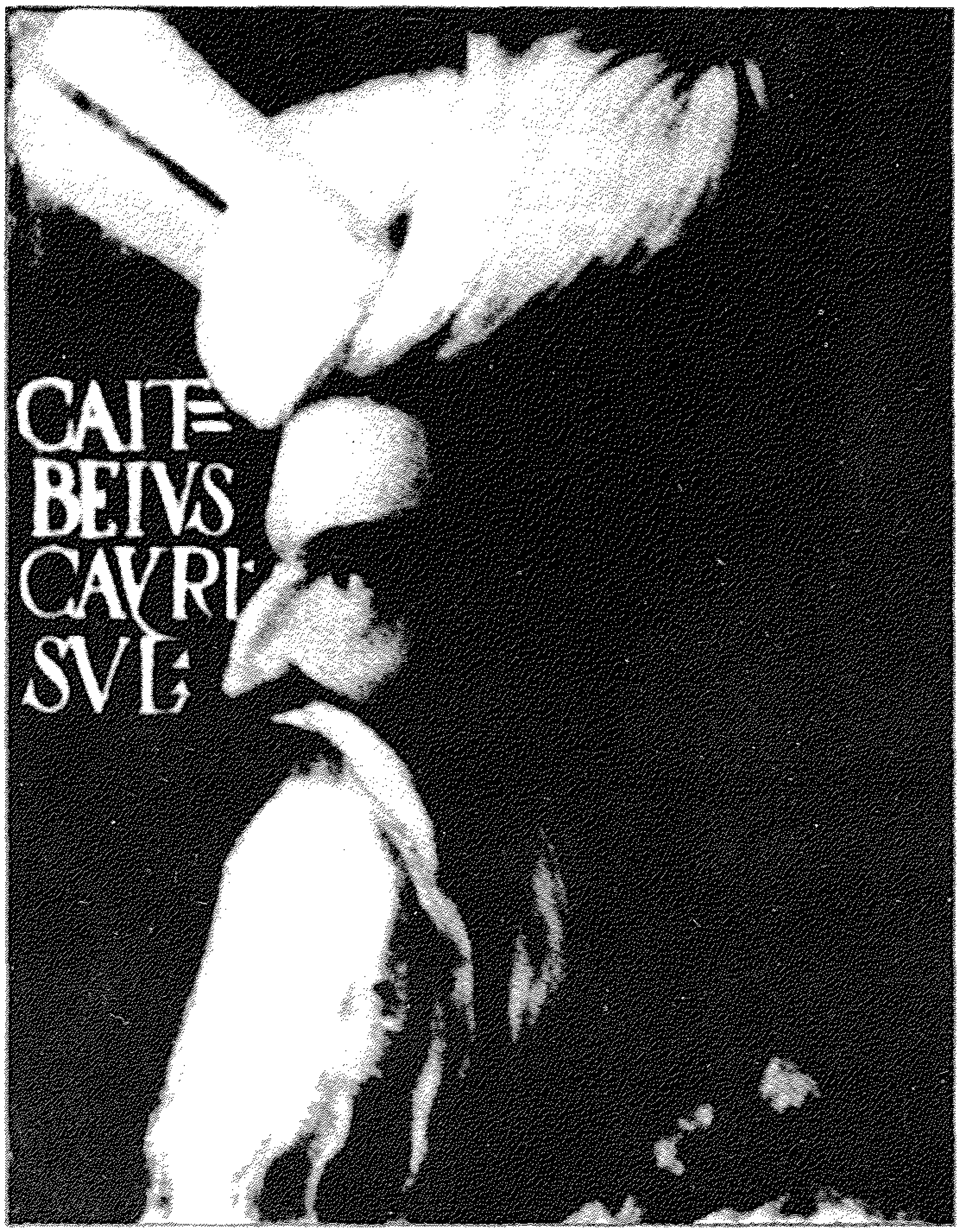

السلطان قايتباى - رسم چنتيلى

التركمانية التى هددت ممتلكات المماليك فى تلك البلاد، وأهم هذه الدول هى : دولة دلغادر ، ودولة رمضان، ودولة قرمان، ودولتى الشاه البيضاء والشاه السوداء، وقد تعرضت بلاد المماليك المتاخمة للدويلات التركمانية لهجمات عسكرية من قبل هذه الدويلات منذ أيام حكم السلطان المؤيد شيخ المحمودى، وقد رأينا كيف قام السلطان المؤيد شيخ سنتى ٨٢١، ٨٢٢هـ / ١٤١٨، ١٤١٩م بحملتين على الأطراف الشمالية لبلاد الشام لإرغام تلك الدويلات التركمانية على الخضوع لسلطنة المماليك. وإذا كانت هاتان الحملتان قد نجحتا وقتها فى إرهاب التركمان مما جعلهم يهدأون مؤقتا عن التعرض لحدود الدولة المملوكية، إلا أن هجوم التركمان على تلك الحدود قد تجدد أثناء وقوع سوء التفاهم بين السلطان المملوكى برسباى وشاه رخ حاكم المغول حول موضوع كسوة الكعبة. فأغار زعيم دولة الشاه البيضاء على حدود الدولة المملوكية ببلاد الشام مما دعى برسباى إلى الرد على التركمان بإرسال حملة قامت بتخريب مدينة الرها، التى كانت تابعة للشاه البيضاء سنة ٨٣٣هـ/ ١٤٣٠م. ورغم هذه الحملة فإن العمل الذى قام به برسباى لم يكن حاسمًا ليردع التركمان، ولم يعاود برسباى الكرة على التركمان بسبب اختلال أحوال البلاد فى أواخر عهد حكمه، وظل الوضع هادئاً نسبياً بين الطرفين المملوكى والتركمانى حتى وصول قايتباى إلى الحكم .

ولقد حدث تطور فى الأمور آنذاك جعل قايتباى يتصرف سريعا حيال التركمان، وتمثل هذا التطور الجديد فى ازدياد نفوذ الأتراك العثمانيين فى تلك الإمارات التركمانية وزيادة تدخلهم فى شؤونها، الأمر الذى جعل السلطان قايتباى يشعر بالخطر الجديد ويفكر فى كبح جماح التركمان حتى لا يكونوا مطية لتغلغل النفوذ العثمانى فى الأطراف الشمالية لدولته لذلك قام قايتباى بإرسال عدة حملات عسكرية ضد دولة دلغادر التركمانية التى كان يتمتع أميرها بتأييد من السلطان العثمانى محمد الفاتح.

وقد قاد هذه الحملة المملوكية الأمير المملوكى يشبك الخاصكى سنة ٨٧٦هـ/ ١٤٧١م، ونجح هذا القائد فى هزيمة جيش شاه سوار والاستيلاء على عدة مدن وهى أذنه وطرسوس وقلعة عينتاب، وقد نجح هذا القائد أيضا فى القبض على شاه سوار وإرساله مقيداً إلى القاهرة وشنقه على باب زويلة. وقد قام الأمير يشبك، قبل مغادرته دلغادر بتعيين الأمير بوداق، أخى شاه سوار مكانه بعد إعلان ولائه لدولة المماليك دون دولة الأتراك العثمانيين.

وبعد تأديب إمارة دلغادر، قام السلطان قايتباى بتأديب إمارة قبيلة الشاه البيضاء، التى دأب حاكمها الأمير حسن الطويل على الإغارة على أعمال حلب، فأرسل إليها القائد الأمير يشبك سنة ٨٧٧هـ / ١٤٧٢م، ونجح يشبك فى إحراز النصر على التركمان عند البيرة على نهر الفرات.

ولما توفى الأمير حسن الطويل سنة ٨٨٣هـ/ ١٤٧٨م، وسادت الفوضى إمارته، انتهز يشبك هذه الفرصة للاستحواذ على أملاك التركمان هناك، إلا أن أحد نواب يعقوب، ابن حسن الطويل استطاع أن يتصدى للحملة المملوكية وينتصر على يشبك فى المعركة التى دارت بينهما كما استطاع أسر يشبك وقتله مع عدد كبير من أمراء المماليك.

ولقد اضطر السلطان قايتباى إلى عقد الصلح

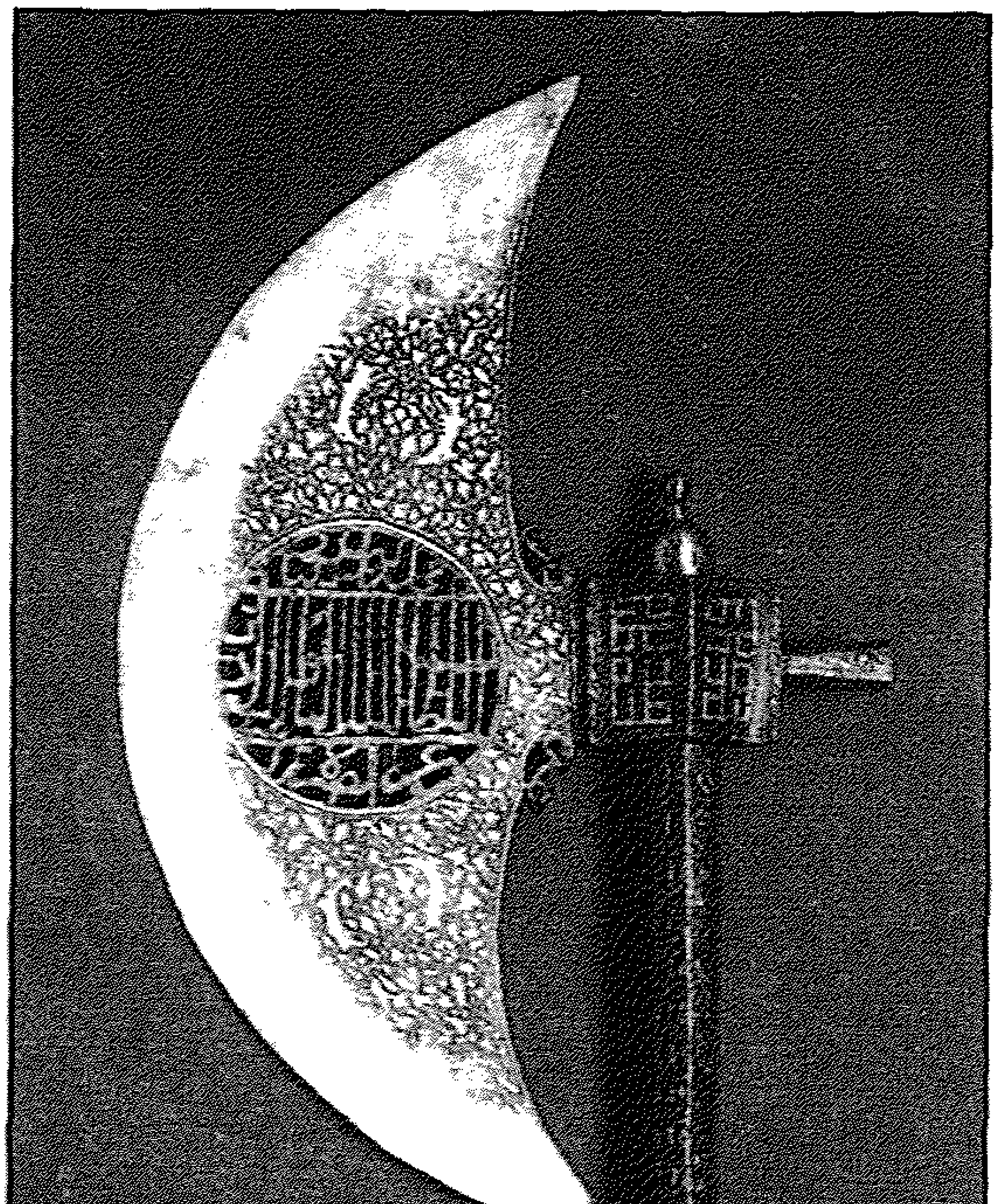

بلطة حربية باسم السلطان قايتباى سنة ١٤٩٥

مع دولة الشاه البيضاء بعد قليل لأن ظروفه آنذاك لم تكن تسمح له بمعاودة القتال والثأر للهزيمة التى وقعت لقواته بقيادة قائده يشبك.

ولقد أتعبت ثورات الجلبان المتكررة السلطان قايتباى وزهدته فى منصب السلطنة الأمر الذى جعله يفكر أكثر من مرة فى التنازل عنها وعدم أخذها لابنه من بعده، ولم يكن لهؤلاء الجلبان من هم سوى الحصول على مخصصاتهم ورواتبهم دون نظر إلى الظروف الاقتصادية والحربية السيئة التى كانت تمر بها الدولة آنذاك. ولما أعيته وسائل اقناعهم تبرم منهم، وعقد مجلساً سنة ٨٩٤هـ/ ١٤٨٩م ضم الخليفة والقضاة والأمراء وعرض أمر الجلبان عليهم وسوء الحالة المالية وأفاض فى شرح ما تكبدته خزانة الدولة من أموال فى سبيل تجهيز الجيوش لمحاربة الأعداء فى الداخل والخارج، وطلب إلى المجلس إعفاءه عن منصبه واختيار سلطان غيره لكن القضاة ألحوا عليه فى البقاء حتى أثنوه عن عزمه، وقد تكرر هذا الأمر وعقد مثل هذا المجلس ثلاث مرات وفى كل مرة يصر السلطان على التنحى ويصر المجلس عليه فى البقاء.

وهكذا كانت ثورات الجلبان من أكبر مشاكل السلطان قايتباى الداخلية، الأمر الذى جعله يزهد فى الحكم والسلطنة ويرفض مبايعة ابنه لها بعد وفاته، والعهد له بولاية العهد خلال مرضه الأخير ٩٠١هـ/ ١٤٩٦م عندما اقترح عليه أتابك العساكر تمراز الشمسى أن يعهد لابنه.

وبرغم المشاكل التى تعرض لها السلطان قايتباى فى الداخل والخارج، فإنه لم يهمل شؤون دولته ورعاياه، وبرغم تعسف هذا السلطان فى جمع الأموال وفرض الضرائب وتطبيق سياسة الاحتكار التى سنها برسباى، لكن أعماله تثبت لنا أنه استغل الأموال الطائلة التى جمعها إضافة لأعداد الجيوش المقاتلة وإرضاء الجلبان بإعطائهم مخصصاتهم، فإنه أنفق الكثير من هذه الأموال فى إقامة المنشآت العديدة والمبانى الفخمة، والشاهد على ذلك قلعته بالإسكندرية وقلعته برشيد، ومسجداه بالقاهرة، والوكالات التى أقامها. هذا فضلا عما قام به من إصلاح وترميم آثار ومنشآت أسلافه من السلاطين، كما تثبت ذلك الكتابات والنقوش العديدة المثبتة فى القلعة ومساجد ذلك العصر ومدارسه.

ولقد اعتبر السلطان قايتباى ثانى سلاطين المماليك، بعد السلطان الناصر محمد ابن قلاوون عناية بالفنون وبخاصة فن العمارة، وكان السلطان قايتباى قد جاوز الثمانين من العمر، واستبد به المرض، ورأى أن يتنازل عن عرش السلطنة لابنه محمد، ثم توفى قبل أن يحسم ذلك الأمر.

ولقد وقعت المنافسة بين أمراء المماليك على تولى السلطنة وبدأت والسلطان قايتباى على فراش المرض، وكان أول الطامعين فيها أتابك العساكر تمراز الشمسى ولم يكن اقتراح تمراز على قايتباى بالعهد لابنه من بعده عن حب لبيت قايتباى، ولكن للتمهيد لنفسه واتخاذ محمد بن قايتباى الذى كان يبلغ فى ذلك الوقت أربعة عشر عاما، قنطرة للوصول للحكم بعد أن يصير الوصى على محمد والمدبر لأمر المملكة ورغم إظهار قايتباى عدم الرغبة فى ذلك إلا أنه فى الواقع كان يسعى فى المبايعة لابنه محمد مما عرضه لمنافسة أمير طامع أقوى منه هو الأمير قانصوه خمسمائة أمير آخور كبير.

وقد تصدى قانصوه لتمراز متبنياً مشروع تولية محمد بن قايتباى، وقد نجح فى المبايعة له وقبض على تمراز وسجنه، وفى اليوم التالى لذلك مات قايتباى دون أن يعلم بما وقع من أحداث فى سلطنته، واستبد قانصوه بالأمر فى السلطنة. وساءت تصرفات السلطان محمد بن قايتباى مما أدى إلى كثرة الفتن ضده، وسرعان ما يقضى قانصوه على زعماء الفتنة ويقوم بعزل السلطان عن السلطنة وتوليها مكانه وذلك بحضور مجلس القضاة والأعيان والخليفة. إلا أن سلطنة قانصوه كانت قصيرة للغاية فلم تدم سوى ثلاثة أيام حتى قام أنصار محمد بن قايتباى بمحاصرته فى القلعة ولَّما يزل الخليفة والقضاة بحضرته، إلا أنه نجح فى الهرب من القلعة، وقام المحاصرون بالإساءة للخليفة والقضاة الذين كانوا قد بايعوا لقانصوه وخطفوا عمائمهم وكادوا يقتلونهم وأفلتوا من أيديهم بصعوبة.

وقد بايع نفس هذا المجلس بالسلطنة لمحمد بن قايتباى للمرة الثانية، وأعيد تمراز إلى منصبه، وقد حاول قانصوه عدة محاولات فاشلة لاستعادة السلطنة وانتهى أمره بالقتل.

ولقد وقع محمد بن قايتباى فريسة استبداد المماليك الجلبان وساءت سيرته وقام بأفعال شنيعة مثل تلك التى قام بها سلفه السلطان فرج بن برقوق، وبلغ من استبداد الجلبان وخضوعه لهم أنه أخرج الكثير من الإقطاعات والأملاك والأرزاق وفرقها عليهم إقطاعات، مما أدى إلى إثارة المخلصين من أنصاره وأصحاب الفضل عليه فى العودة إلى العرش، والقيام بالثورة ضده والخروج والتآمر عليه. ومن هؤلاء الأتابك تمراز الشعبى، وخاله قانصوه عضده وساعده الأيمن فى جميع ما تعرض له، والأمير طومان باى الدوادار الثانى والأمير أزبك. وقد استمال هؤلاء الناقمون على تصرفات السلطان وتهاونه مع الجلبان خال السلطان (قانصوه) إلى جانبهم وقتلوا السلطان، وكان طومان باى هو المتولى لهذا الأمر، ثم أرسل الخال من أحضر جثة السلطان القتيل ودفنها، وكان عمر السلطان محمد بن قايتباى يوم قُتل سبعة عشر عاما.

واجتمع الأمـراء المماليك، وعرضوا السلطنة على الأمـير أزبك أرشدهم وأرفعهم مكانا فرفض رفضًا قاطعًا، وإزاء هذا الإصرار الحاسم والرفض القاطع من جانب الأمير أزبك، اتفق الأمراء على سلطنة قـانصوه خال السلطان محمد فى ربيع الأول سنة ٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م، وبايعوه بالسلطنة وكان الأمير أزبك أول المبايعـين له فأقره قـانصوه فى منصب الأتابكيـة الذى كان يشغله، كـذلك قام بترقية الأمير طومان باى إلى منصب الدوادارية الكبرى عوضا عن نفسه وأضاف إليه الوزارة والأستادارية نظراً لكونه المنفذ لمقتل السلطان محمد بن قايتباى الذى أوصل قانصوه إلى كرسى السلطنة.

ولم يكن طومان باى فى حقيقة الأمر راضيا عن سلطنة قانصوه، لأنه طمع فى السلطنة كما طمع سائر أمـراء المماليك فـيها، ولذلك عـمل طومان باى على تولى السلطنة بعـد الخلاص من

قلعة قايتباى بالإسكندرية

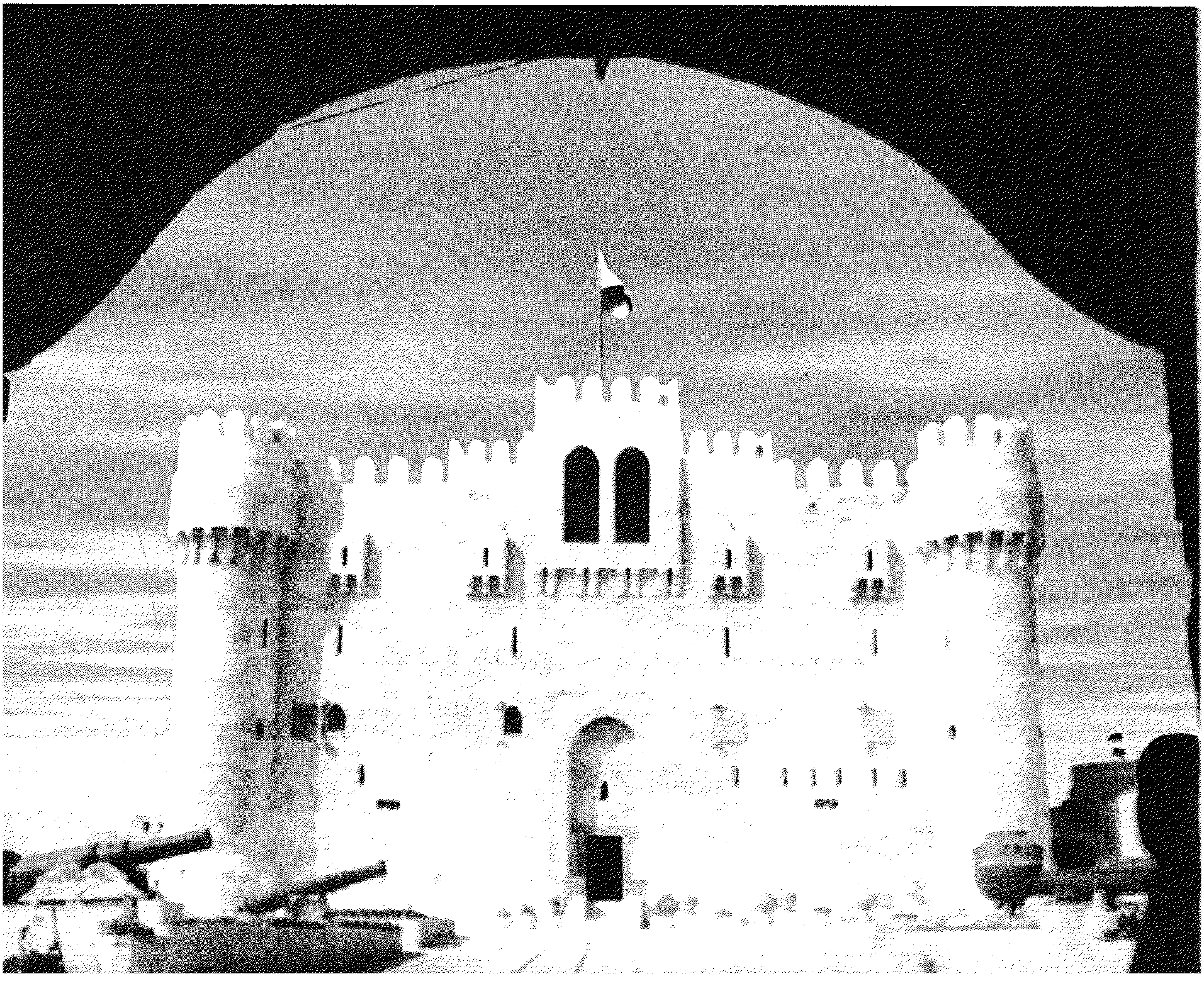

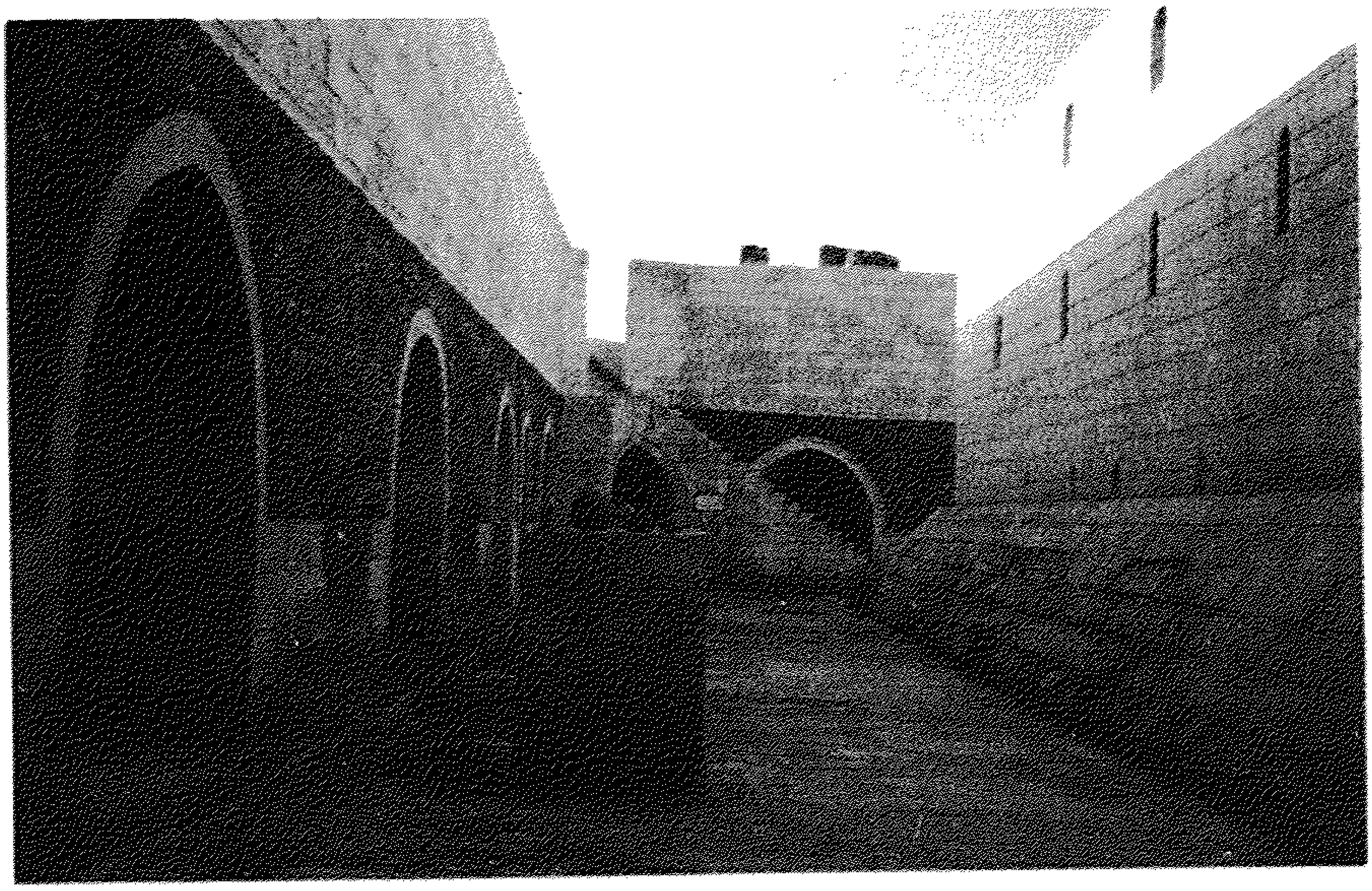

قلعة قايتباى - رشيد

قانصوه. ولم يدخر طومان باى فى ذلك وسعاً فسرعان ما تحرك لتنفيذ مخططه بالتواطؤ مع قصروه، نائب الشام، سنة ٩٠٥هـ/ ١٤٩٩م. وقد حاول قانصوه القبض على طومان باى حين توجس منه شراً، لكنه فشل فى ذلك ، فى الوقت الذى نجح فيه طومان باى بمحاصرة

وكالة الغورى- بجوار مسجده ومدرسته

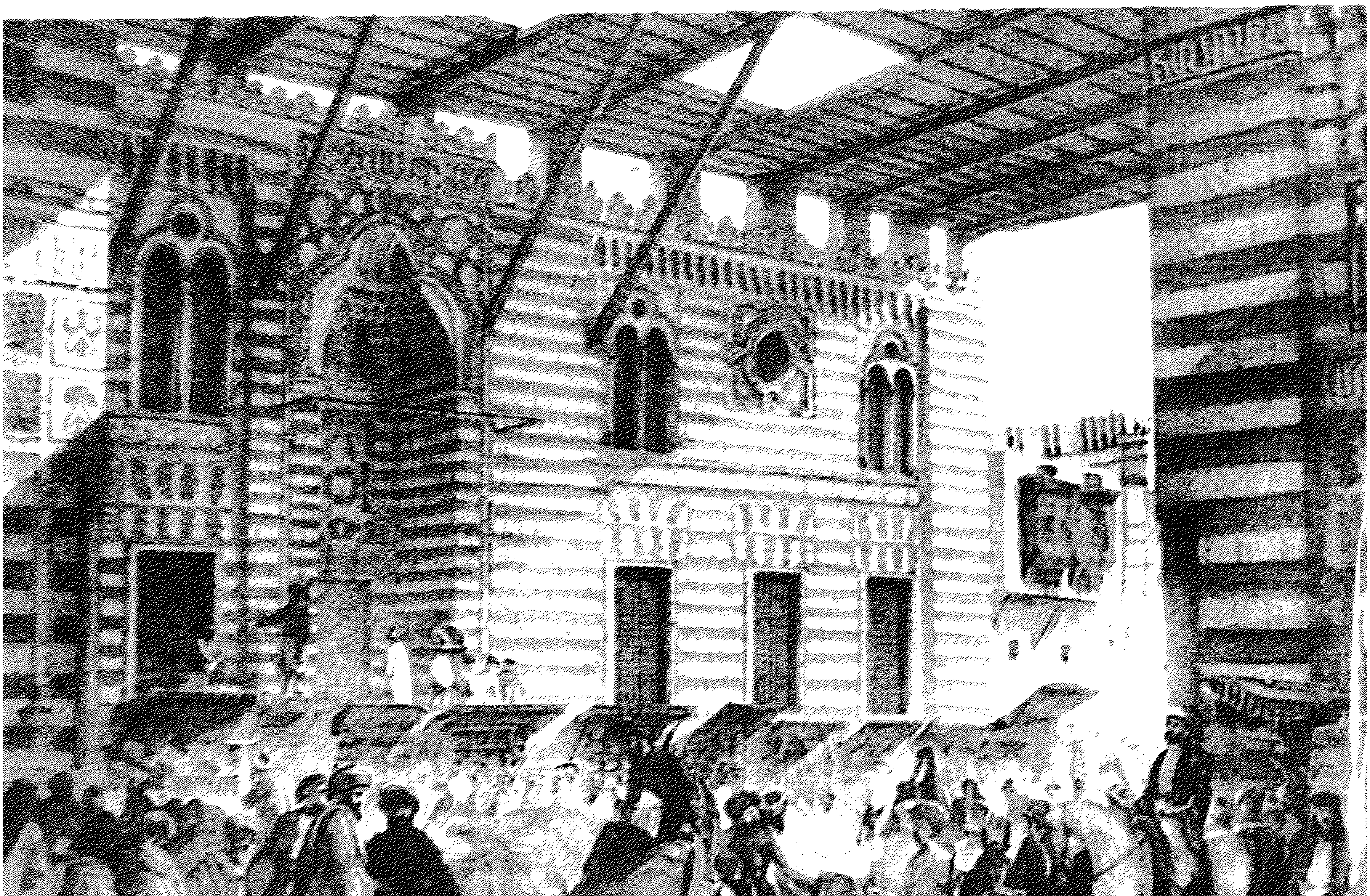

قانصوه فى القلعة والسيطرة عليها، وقد نجح قانصوه فى الهرب من الحصار بعد أن تزيا فى زى النساء، وقد كانت سلطنة قانصوه اسمية بحته رغم قصرها، ولم يكن له من الأمر شيء، وكان المتصرفون فى أمرها هم أمراء المماليك الذين أوصلوه إلى العرش.

ولقد سنحت الفرصة لطومان باى، بعد هرب قانصوه، لتولى السلطنة، إلا أنه رأى أن يتمهل وأن يرفع إليها أتابك العساكر الأمير جانبلاط دون أن يرغب أمراء المماليك فى ذلك. وقد تولى جانبلاط السلطنة فى ذى الحجة سنة ٩٠٥هـ/ أغسطس ١٥٠٠م، وتلقب بالأشرف، وحاول جانبلاط ضم نائب الشام، قصروه إلى صفه بتوليته منصب الأتابكية الذى كان يتولاه هو، لكن نائب الشام رفض ذلك وأعلن نفسه سلطانا على الشام واتخذ لنفسه لقب العادل. وقد كلف جانبلاط طومان باى بالتوجه على رأس جيش إلى الشام لإخضاع قصروه، لكن طومان باى حين وصل إلى دمشق تفاوض مع قصروه فى عزل جانبلاط عن السلطنة ومبايعته هو بها. وبالفعل تمت مبايعة طومان باى سلطاناً بحضور قضاة الشام فى دمشق وكتابتهم محضراً بخلع جانبلاط وتولية طومان باى وتلقيبه بلقب المؤيد، وذلك فى جماى الآخرة سنة ٩٠٦هـ/ يناير ١٥٠١م. وقد وافق قصوره هذه المرة على تولى منصب الأتابكية، وعلى تولى قانصوه الغورى منصب الدوادارية الكبرى والمناصب التى كان يتولاها طومان باى نفسه.

وما كان أمام طومان باى إلا أن يعود بجيشه الذى توجه به من الشام إلى مصر ومحاصرة القلعة والقبض على جانبلاط وحبسه ثم خنقه وهو فى السجن، وقد قام الخليفة بالبيعة لطومان باى بالسلطنة ومنحه لقب العادل بدلا من لقب المؤيد.

وقد تخلص طومان باى (الأول) من قصروه لتخوفه منه وشكه فى أمره فقبض عليه، حين صعد إليه فى القلعة ، وقام بخنقه. وقد خشى أمراء المماليك المحيطون بالسلطان أن ينزل بهم السلطان ما أنزله بأتابك العساكر قصروه، وسرعان ما تجمع الأمراء برئاسة الأمير قانصوه الغورى للخلاص من السلطان، وأشاعوا أنه يزمع الخلاص منهم وهم فى المسجد يوم عيد الفطر فسارعوا بالهجوم عليه وقتله، وهو لم يكن له من عمر السلطنة سوى ثلاثة شهور فقط.

السلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى (٩٠٦-٩٢٢هـ / ١٥٠٠-١٥١٥م):

تولى الملك الأشرف قانصوه الغورى السلطنة فى شهر شوال سنة ٩٠٦هـ/ مايو ١٥٠١م، بعد تردد لأنه كان يخشى مخاطر هذا المنصب آنذاك والنهاية الدموية التى ينتهى إليها كل أمير مملوكى يصبح سلطانا. وقد تهرب معظم أمراء المماليك من تولى المنصب خوفا على أنفسهم، ثم

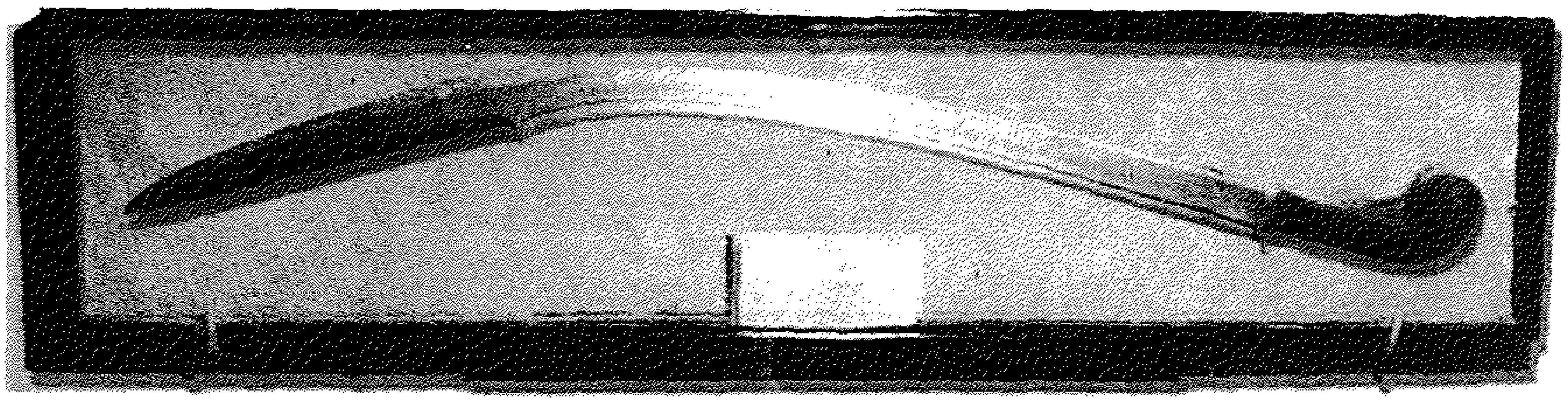

سيف السلطان الغورى من الصلب- بالمتحف الإسلامى بالقاهرة

اتفقوا فى نهاية الأمر على تولى الغورى ولم يختاروا الغورى لكفاءته ومقدرته وشدته، ولكنهم اختاروه لما رأوا فيه من لين وطيبة وهى صفات يريدونها فى السلطان حتى يسهل لهم إقالته والإحلال مكانه متى أرادوا. وقبِل الغورى المنصب بعد أن تعهد له الأمراء عدم قتله إذا ما قرروا خلعه، ووافق الأمراء على ذلك وتعهدوا له بذلك، وتمت مبايعته بحضور الخليفة والقضاة والأمراء.

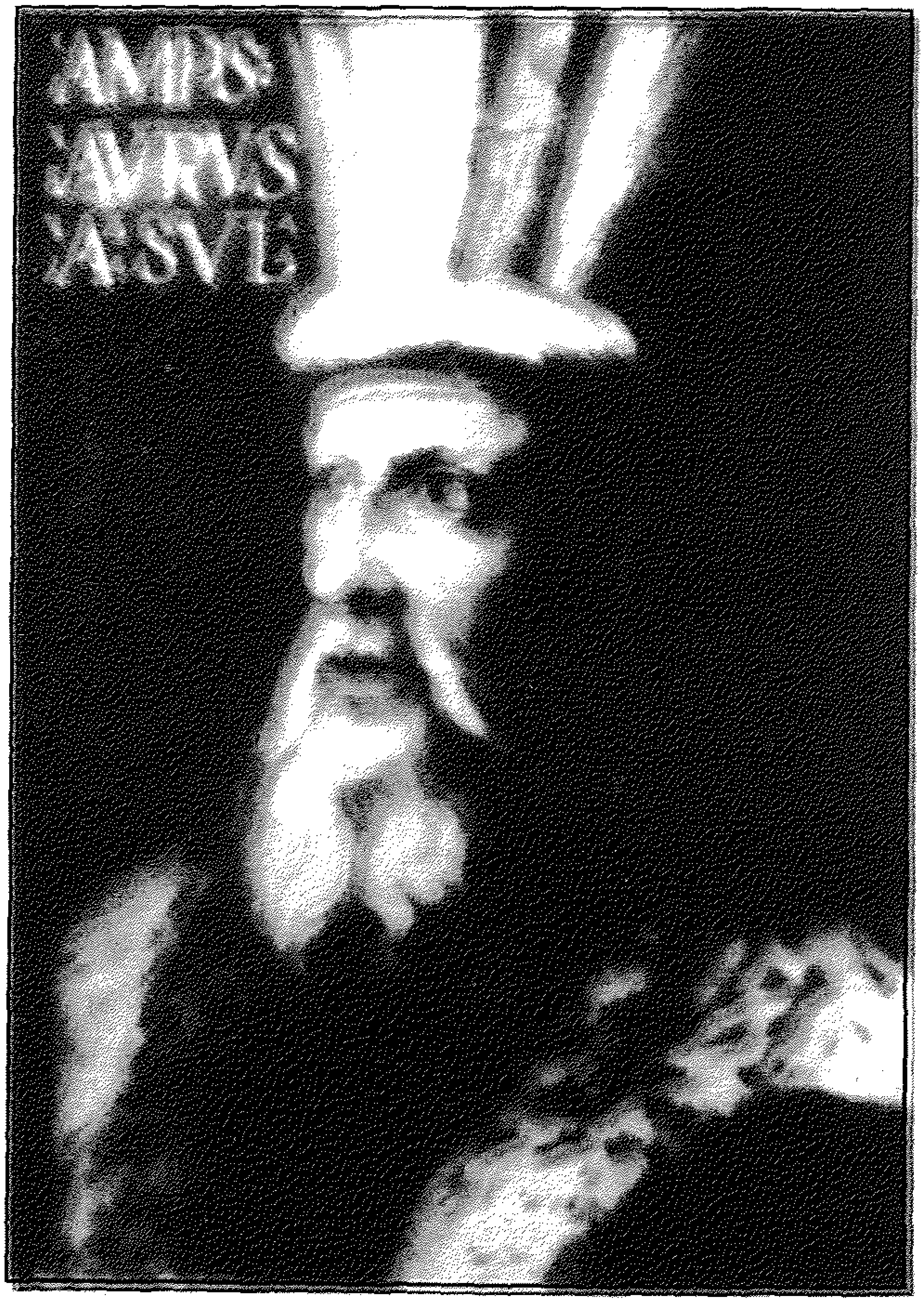

السلطان قانصوه الغورى - رسم چنتيلى

لكن الغورى، رغم تجاوزه الستين من العمر، أثبت قوته وصلابة عوده على غير ما رآه الأمراء عليه، فسرعان ما أعاد الأمن والأمان للبلاد والهدوء للقاهرة، وأهَّل فى مناصب الدولة من يثق فى حسن أدائه من الأمراء، ثم اتجه إلى علاج الأزمة المالية التى أفلست بسببها خزانة الدولة. وقد جاء هذا العلاج على حساب شعب تحمل الكثير من الضرائب والمغارم ولم يشفع للغورى لدى رعاياه المصريين أنه شيد لهم مسجداً ومدرسة فى حى الغورية، المنتسب إلى اسمه، وعنايته بحفر بعض الآبار على طريق الحج إلى الأراضى المقدسة، وبعض الإصلاحات التى قام بها للقلعة ولمدن الإسكندرية ورشيد. ومن المعلوم أن السلطان الغورى قد استكثر من مماليكه بالشراء وصرف الأموال الطائلة على إظهار بلاطه بالفخامة الظاهرة، كما اشتهر بمجالسه الأدبية والعلمية وتقريبه للعلماء والأدباء والشعراء.

هذا ولم تحدث قلاقل وفتن ذات خطورة فى الفترة الأولى من سلطنة الغورى، غير تلك الثورات المألوف حدوثها من جانب المماليك والعربان فى ذلك العصر. وقد نجح الغورى فى التصدى لها قبل استفحالها لكن الخطر الكبير الذى تعرضت له دولة المماليك آنذاك هو خطر البرتغاليين وخطر العثمانيين. وكانت مصر المملوكية بحكم تحكمها فى طريق التجارة العالمى بين الشرق والغرب، طريق البحر الأحمر، تحصل رسوماً كثيرة على السفن المارة عبر هذا الطريق والسلع التى تحملها هذه السفن وبخاصة سلع الشرق الغنية من توابل وحرير وجواهر ورقيق. وقد فرض سلاطين المماليك الجراكسة، بداية من برسباى سياسة احتكارية للتوابل وتحكموا وزادوا فى أسعارها، حتى صار ثمن هذه السلعة يفوق أربعين مرة ثمنها المستوردة به من بلاد الهند والصين، وقد ضاق التجار والمستهلكون الأوربيون بذلك الوضع، فبدأت الجهود الأوربية تبذل لاكتشاف طريق آخر للتجارة مع بلدان الشرق الأقصى غير الطريق الذى يتحكم المماليك فيه، هذا فضلا عن وجود دافع آخر جديد حفز رجال الغرب بالبحث عن طريق بديل وهو الدافع الصليبى الذى استخدمه الصليبيون كسلاح جديد لحرب المسلمين، وهو السلاح الاقتصادى الذى هو أساس دعم السلاح العسكرى. فبحرمان مصر المملوكية من عائد المرور فى طريق البحر الأحمر، ستتحول التجارة إلى طريق آخر جديد فيتأثر اقتصادها ويضرب فى الصميم، وتفقد مصر المملوكية بالتالى الدعم المالى الذى هو دعم عسكرى، فبدون المال لن يتوفر السلاح والعتاد للمسلمين فينهزموا فى الجولة الثانية من جولات الحروب الصليبية والصراع بين الشرق والغرب.

ولقد نجح البرتغاليون بقيادة بارثلميودياز سنة ٨٩٢هـ/ ١٤٨٧م فى كشف

لوحة باسم قانصوه الغورى على باب قلعة قايتباى بالإسكندرية

طريق رأس الرجاء الصالح، وأعقبه فاسكو داجاما الذى تمكن من الوصول إلى الهند عن طريق الطواف حول إفريقيا

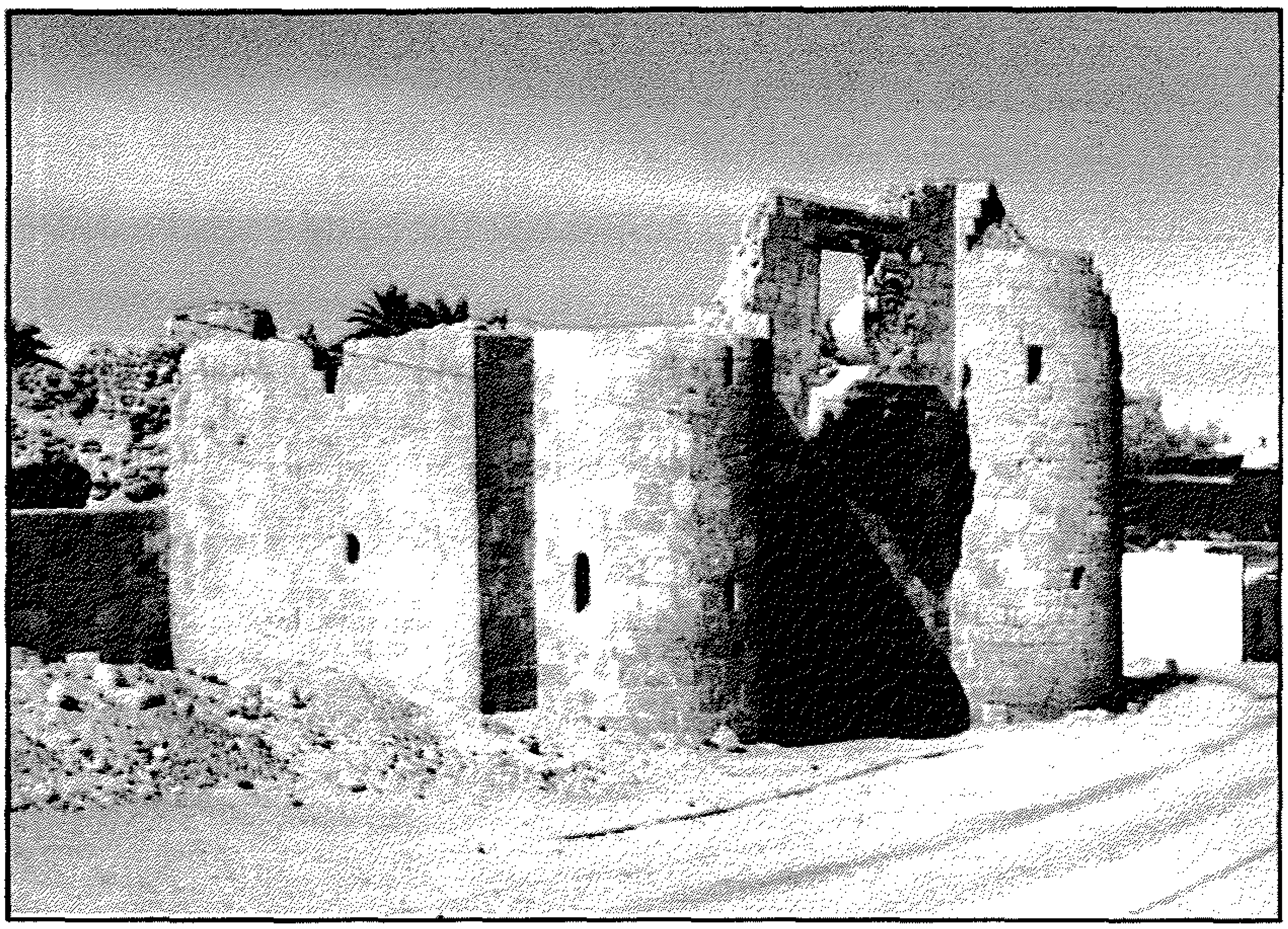

قلعة العقبة التى بناها قنصوه الغورى - الأردن

سنة ٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م، وبذلك نجح البرتغاليون فى تحقيق لأوربا الهدفين الاقتصادى والصليبى معاً، وأصيبت الدولة المملوكية فى عهد حكم الغورى بضربة فى الصميم جعلتها تترنح وتفكر فى الوصول إلى حل يعيد الأمور إلى نصابها. ولم يكن أمام الغورى إلا التصدى بالقوة للبرتغاليين لوقف التعامل مع الطريق الجديد، فأعد الغورى حملة بحرية كبرى وأرسلها إلى البحر الأحمر سنة ٩١١هـ/ ١٥٠٥م، بقيادة نائب جدة، حسين الكردى، وقد لقى الأسطول المصرى هزيمة كبيرة وتحطمت معظم سفنه فى مياه المحيط الهندى سنة ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م فى موقعة ديو البحرية.

السلطان سليم الأول العثمانى

هذا عن خطر البرتغاليين، أما خطر العثمانيين، فقد ساءت العلاقات بين الدولة

العثمانية الفتية ودولة المماليك، حين قنعت الدولة العثمانية بما حققته من فتوح فى بلاد آسيا الصغرى والبلقان واتجهت بفتوحها نحو بلاد الشرق، وتدخلت فى شؤون إمارات آسيا الصغرى، وبخاصة إمارتى قرمان ودلغارى التركمانيتين، وهما مشمولتان بحماية سلطنة المماليك، واعتمدت عليهما هذه السلطنة فى شؤون الأمن والدفاع عن مصالحها فى شمال الشام والعراق.

ولقد وقع الصدام الفعلى بين المماليك والعثمانيين فى عصر السلطان العثمانى سليم الأول من ناحية والسلطان المملوكى قانصوه الغورى من ناحية أخرى، حين قضى السلطان سليم سنة ٩٢١هـ/ ١٥١٥م على إمارة دلغادر التركمانية التى كانت تتمتع بحماية المماليك، مما جعل الصِّدام بين الدولتين أمرًا محتوماً.

ولقد توجس الغورى خيفة من قرب هجوم العثمانيين على الأراضى المصرية بعد أن هاجموا الولايات التركمانية الواقعة على حدود الممتلكات المصرية.

وقد استعد الغورى لحرب العثمانيين، فجهز جيشه وسار على رأسه متوجها إلى حلب بعد أن أناب عنه فى مصر الأمير طومان باى. ووقعت بين الجيشين معركة حاسمة عند مرج دابق، شمالى حلب، وكادت نتيجة اللقاء تصبح لصالح القوات المصرية لولا خيانة خير بك نائب حلب، الذى انسحب بقواته من ميدان القتال وإشاعته بين الجنود مقتل السلطان الغورى فى المعركة، وقد أدى ذلك إلى وقوع البلبلة بين المصريين وتفرق صفوف المقاتلين فى قوات المماليك وانهيار مقاومتهم.

ولم يتحمل الغورى الصدمة لكبر سنه، فسقط مغشيا عليه من على فرسه وتوفى فى ساعته وضاعت جثته بين القتلى ولم يُعثر عليها.

ولقد اختار أمراء المماليك الأمير طومان باى سلطاناً على البلاد سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م، وقام طومان باى بتجهيز قواته داخل القاهرة لمحاربة العثمانيين ووقف تقدمهم نحو مصر، وكان طومان باى قائدا شجاعا مقداما لم يهتز لانتصار العثمانيين ولم يتأثر بالهزيمة التى وقعت لجيش الغورى، وكان شديد الثقة بإمكانية إحراز النصر عليهم.

وطلب طومان باى من أمراء المماليك أن يتجهزوا مع جنودهم للذهاب إلى الشام لملاقاة العثمانيين هناك وتخليص بلاد الشام من أيديهم، إلا أن هؤلاء القواد الأمراء تخاذلوا بعد أن ملوا القتال وأعلنوا عدم مقدرتهم عليه، فما كان من طومان باى إلا أن جمع صبيانه ومماليكه وعامة

الشعب المصرى لمواجهة العثمانيين، وخرج بهذا الجمع إلى منطقة الريدانية للتصدى للحشود العثمانية الزاحفة.

وعند الريدانية التقى الجيشان غير المتكافئين، فهُزمت قوات طومان باى ، إلا أن طومان باى انسحب بما تبقى لديه من هذه القوات داخل القاهرة للدفاع عنها وإخراج القوات العثمانية منها، بعد أن دخلتها هذه القوات، وقد نجح طومان باى فى ذلك، لكن الخيانة لعبت دورها فى هزيمة القوات المصرية وانهيار مقاومتها أمام العثمانيين، ذلك لأن طومان باى فوجئ بخيانة البدو ومهاجمتهم لمؤخرة جيشه على ضفاف النيل بالجيزة؛ الأمر الذى أوقع القوات المصرية بين شقى الرحى، فاضطر طومان باى للانسحاب بما تبقى له من قواته إلى منطقة وردان بالجيزة، حيث دارت هنالك معركة قصيرة سريعة انتصر العثمانيون فيها، واضطر طومان باى إلى الهرب، بعد أن بذل كل ما فى جعبته، إلى أحد شيوخ الأعراب بمنطقة البحيرة طالبًا حمايته، كانت لطومان باى أفضال عليه، إلا أن هذا الشيخ غدر بطومان باى وقام بتسليمه للعثمانيين الذين لم يتورعوا عن شنقه وتعليقه على باب زويلة فى ٢٣ ربيع أول ٩٢٣هـ/ ١٥ أبريل ١٥١٧م إعلانًا لهزيمة دولة سلاطين المماليك وسقوطها فى يد العثمانيين.

وباستيلاء العثمانيين على مصر، تحولت مصر من دار خلافة إلى ولاية تابعة للدولة العثمانية، وانتقلت الخلافة من عاصمتها القاهرة إلى القسطنطينية، عاصمة الدولة العثمانية بعد أن صار حكام وسلاطين العثمانيين خلفاء يجمعون بين الخلافة والسلطنة. وبهذه التبعية المصرية للدولة العثمانية ينتهى عصر سلاطين المماليك، وتدخل مصر التاريخ الحديث فى دور جديد من أدوار حكمها يختلف تمامًا عن الأدوار التى مرت بها وغطت أحداثها القرون التسعة السالفة.

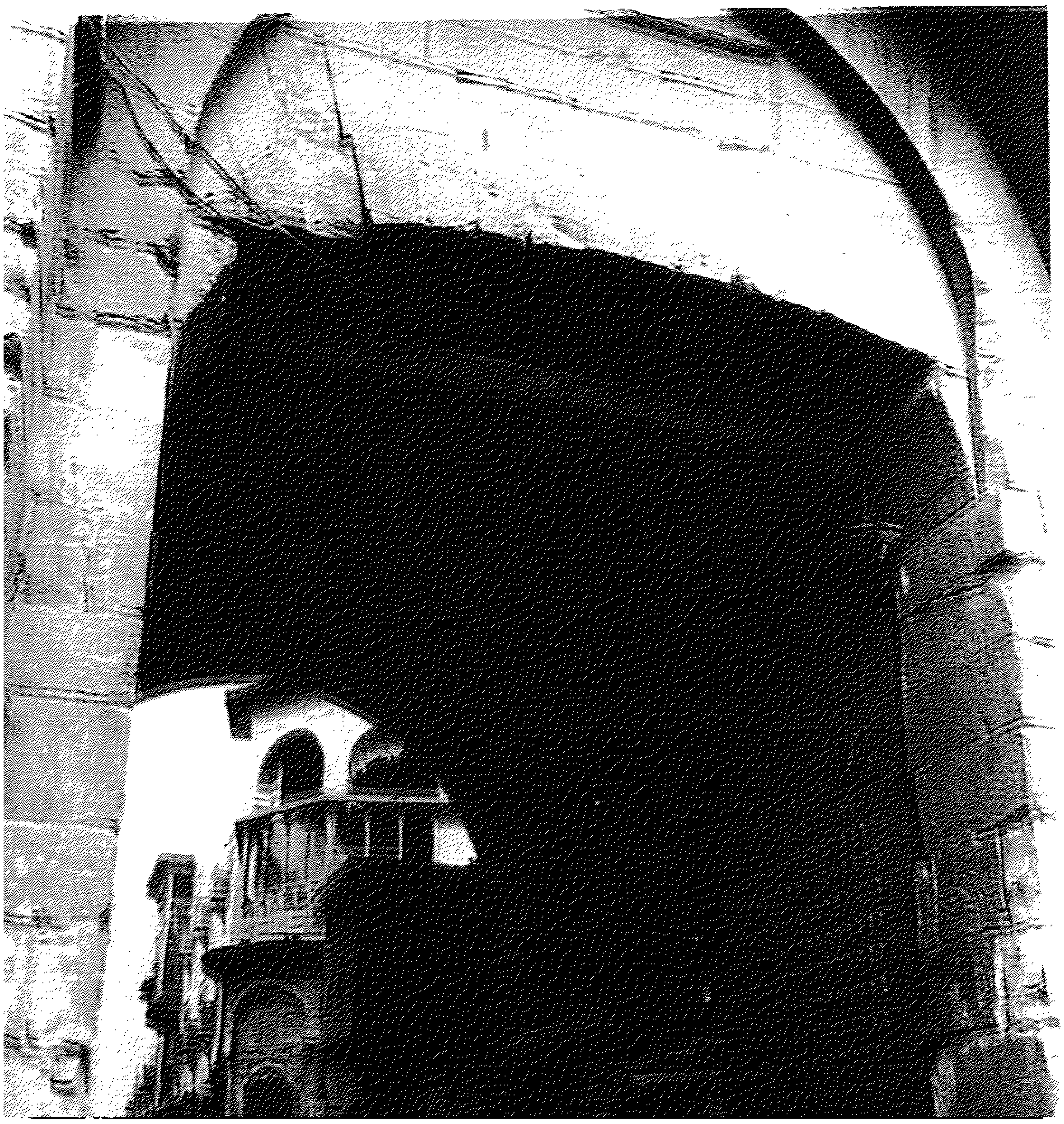

باب زويلة الذى شُنق عليه طومان باى

الفصل الثالث
أهم الآثار المعمارية الباقية من عصر سلاطين المماليك

منشآت السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى :

جامع الظاهر :

وهو أقدم مساجد المماليك، بناه السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م، وأشرف على بنائه الأمير علم الدين سنجر المسرورى متولى القاهرة، وقد أمر بيبرس أن يدفن فى هذا المسجد، وهو باق حتى الآن فى ميدان الظاهر بالعباسية. طوله ١٠٨ مترا وعرضه ١٠٥ مترا، وهو يتكون من صحن يحيط به أربعة إيوانات: القبلى ويتكون من ستة أروقه، وكل من الإيوانين الشرقى والغربى يتكون من ثلاثة أروقة ويتكون الإيوان البحرى من رواقين وجميع عقود الجامع محمولة على أعمدة رخامية ، وواجهات الجامع الأربع مبنية بالحجر وكانت للمسجد مئذنة هدمها الفرنسيون أثناء حملتهم على مصر سنة ١٧٩٨م، وقد قامت مصلحة الآثار بترميمه سنة ١٩١٨م.

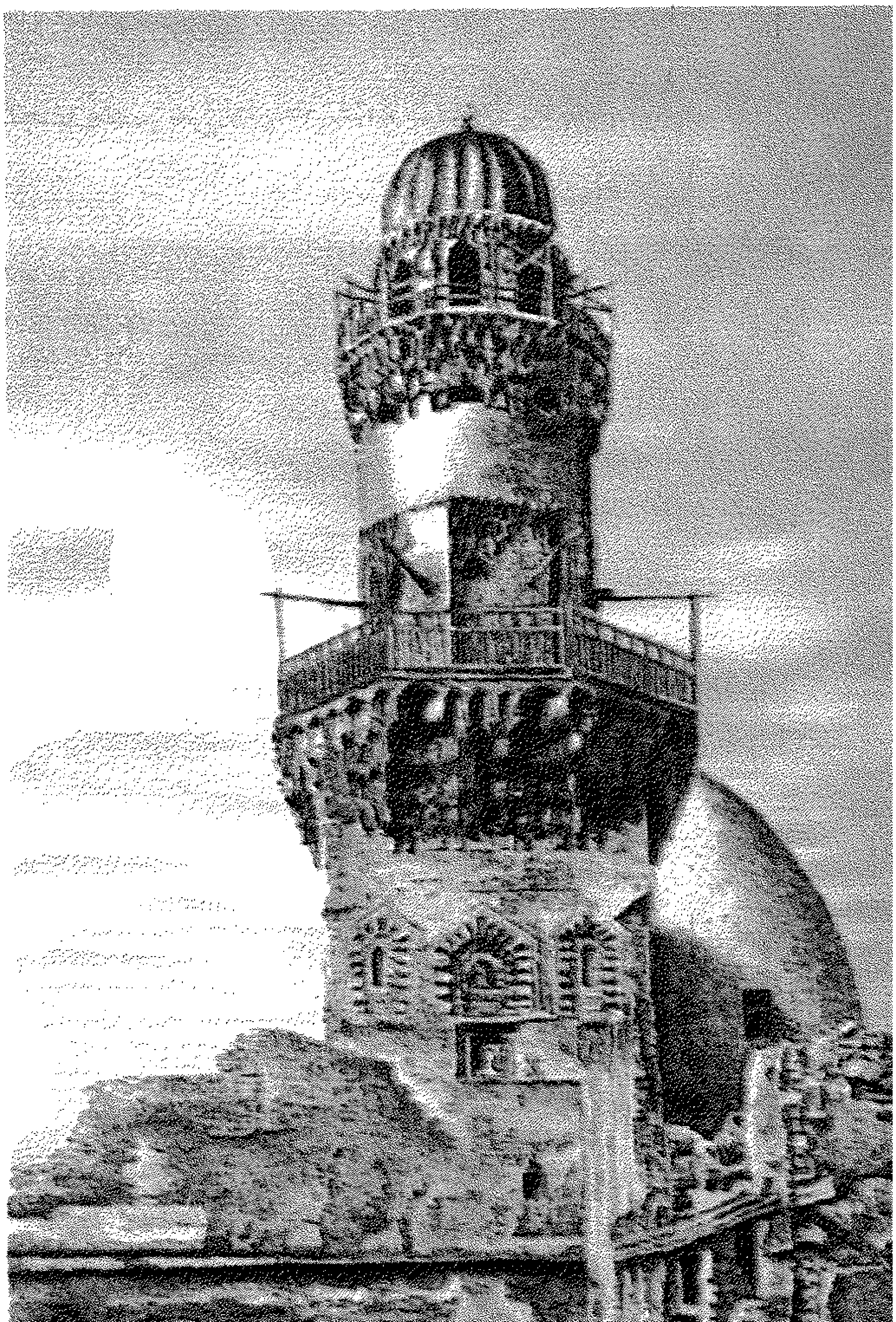

مئذنة مسجد بيبرس - جامع الظاهر

منشآت الملك المنصور سيف الدين قلاوون :

المارستان (المستشفى) والمدرسة والتربة :

أنشأ السلطان المنصور قلاوون فى شارع بين القصـرين، مجموعة عظيمة من المبـانى تتألف من مـارستـان ومدرسـة وتربة، غلب عليـها اسم مـارستـان قلاوون، وقد أشرف على البناء الأمير علم الدين سنجر الشجاعى ولا تزال بقايا هذا المارستـان باقية، والباقى منه جزءان من القاعتين الشـرقية والغربيـة وجانب كبير مـن القاعة القبليـة. ويشغل مساحـة كبيرة مـنه فى الوقت الحالى مستـشفى قلاوون للرمـد وينقسم البناء إلى قسمين: قبلى وهو واجهة المدرسة، وبحـرى وهو واجهة التربة التى يعلوها القبة وتوجد المئذنة فى نهاية القسم الـبحرى وأمام القبـة وقاعتها توجـد المدرسة بمحرابها البـديع وبقايا زخارفها الجـصية المتقنة، ويوجد بجزء من واجهة المدرسة سبيل صـغير أنشأه السلطان الناصر محمد بن قلاوون على روح والده.

منشآت السلطان الناصر محمد بن قلاوون:

أهم منشـآت الناصـر : مـدرستـه بالنحاسين، وخانقاه بالجمالية، ومسجده بالقلعـة، ومسـجـد بالدرب الأحمـر، وسراى بشارع بين القصرين.

مـدرسـة الناصر محـمـد بشارع بين القصرين:

وهى مـلاصـقـة لقبـة السلطان قـلاوون بشـارع المعـز لدين الله، وضع أساسها السلطان الملك العادل زين الدين

تصوير لفارس مملوكى- الأسلوب المملوكى

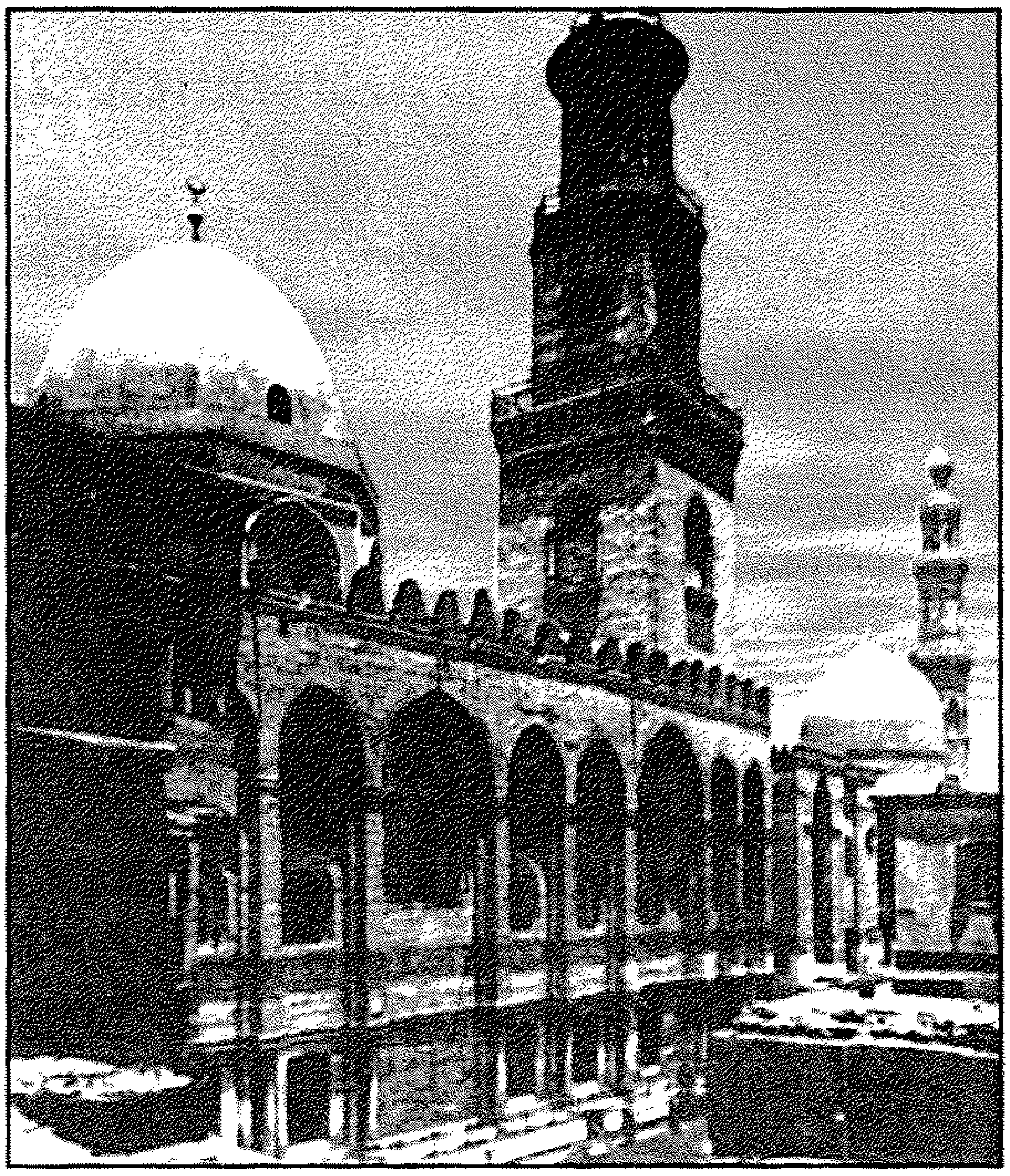

مسجد ومدرسة السلطان قلاوون

كتبغا المنصورى سنة ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م ولم يتم بناءها، فأكمل بناءها السلطان الناصر محمد بن قلاوون أيام سلطنته الثانية سنة ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م ولم يبق من هذه المدرسة الآن سوى الإيوان الشرقى وبه محراب جصى نادر المثال وبه شباك من الجص غاية فى الدقة.

مسجد الناصر بالقلعة:

أنشأ الناصر سنة ٧١٨هـ/ ١٣١٨م، وأعاد بناءه سنة ٧٣٥هـ/ ١٣٣٤م وهو من المساجد الكبيرة، أقيم على نظام بناء المساجد القديمة من أربعة إيوانات تحيط بالصحن المكشوف، وأكبرها إيوان القبلة ويوجد أمام محراب هذا المسجد قبة كبيرة محمولة على أعمدة ضخمة من الجرانيت الأحمر، وللمسجد مئذنتان وبابان، أحدهما غربى تجاوره المئذنة الأولى، وهى أسطوانية الشكل، والباب الآخر بالواجهة البحرية وفى نهايتها المئذنة الثانية وهى مربعة القاعدة.

منشآت السلطان حسن بن محمد بن قلاوون:

مسجد أو مدرسة السلطان حسن:

يقع هذا المسجد بميدان صلاح الدين، فى الجهة البحرية من القلعة، أنشأه السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون، وقد تم بناؤه فى الفترة من ٧٥٧هـ حتى

مدرسة ومسجد الناصر محمد بن قلاوون

٧٦٢هـ / ١٣٥٦ - ١٣٦١م، وتبلغ مساحته ٧٩٠٦ مترات مربعة وطوله ١٥٠ مترا وعرضه ٦٨ مترا، وواجهتـه البحرية، وهى الواجهة الأصلية، مشرفة على شارع القلعة (شارع محمد على) وواجهتاه الجنوبية والشرقية مشرفتان على ميدان صلاح الدين وتخطيط هذا المسجد من الطراز المملوكى له أربعة إيوانات متعامدة يتوسطها الصحن المكشوف تتوسطه ميضأة تعلوها قبة محمولة على ثمانية أعمدة من الرخام وهذا المسـجد أضخم مـساجد مـصر عمـارة وأعلاها بنياناً وأكـثرها فخامة وأحسنها شكلا وأجمعها لمحاسن العمارة ويتـميز هذا المسجد بقبته الكبيرة التى لم يُبن مثلها فى أى من بلاد العالم الإسلامى، فضلاً عن منبره المصنوع من الرخام الخالص.

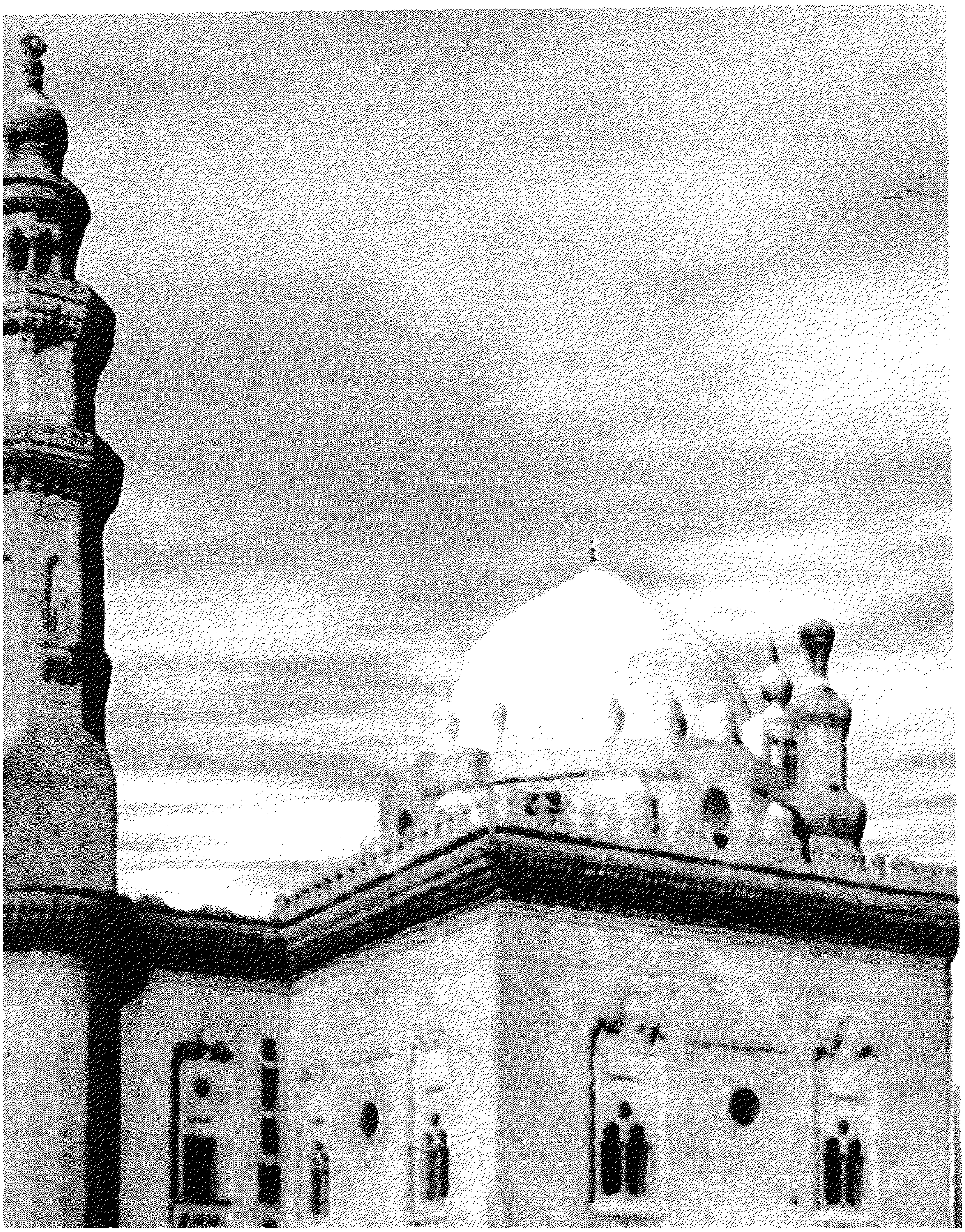

مسجد ومدرسة

السلطان حسن

منشآت السلطان الظاهر برقوق :

مسجد السلطان برقوق بالنحاسين :

أنشأ السلطان برقوق هذا المسجد سنة ٧٨٦هـ / ١٣٨٤م، فى الجهة البحرية لمدرسة الناصر محمد بن قلاوون، ولهذا المسجد مئذنة ضخمة، وللباب العمومى لهذا المسجد ضلفتان من الخشب مصفحتان بالنحاس المكفت بالفضة، ويؤدى إلى طرقة توصل إلى الصحن الذى تحيط به أربعة إيوانات متعامدة أكبرها إيوان القبلة ومحراب المسجد مكسو بالرخام المتعدد الألوان والمحلى بفصوص من الصدف.

مسجد الظاهر برقوق

تربة برقوق بمقابر المماليك بالقرافة الشرقية:

وهى فى الواقع مدرسة أنشأها برقوق سنة ٨٠١هـ/ ١٣٩٨م، بالقرافة الشرقية، وهى أيضاً مسجد للصلاة، وخانقاة للصوفية، جمعها السلطان برقوق فى مكان واحد؛ لذلك جاءت أضخم تربة وُجدت فى جميع جبانات مصر والقاهرة.

جامع المؤيد :

وهو جامع كبير بناه السلطان المؤيد شيخ المحمودى سنة ٨١٨ - ٨٢٣هـ/ ١٤٠٥-١٤١٠م، بجوار باب زويلة، ومدخله موجود فى الطرف البحرى للواجهة الشرقية وبابه مكسو بالنحاس المحلى بزخارف هندسية بديعة. وقد تهدمت ثلاثة من أواوين هذا المسجد ولم يبق سوى الإيوان الشرقى الذى يكسو جزء من جدرانه وزرة من الرخام المختلف الألوان. وبجوار المحراب يوجد منبر حشواته مجمعة على هيئة أشكال هندسية، ومنارتا هذا الجامع قائمتان على بدنتى باب زويلة.

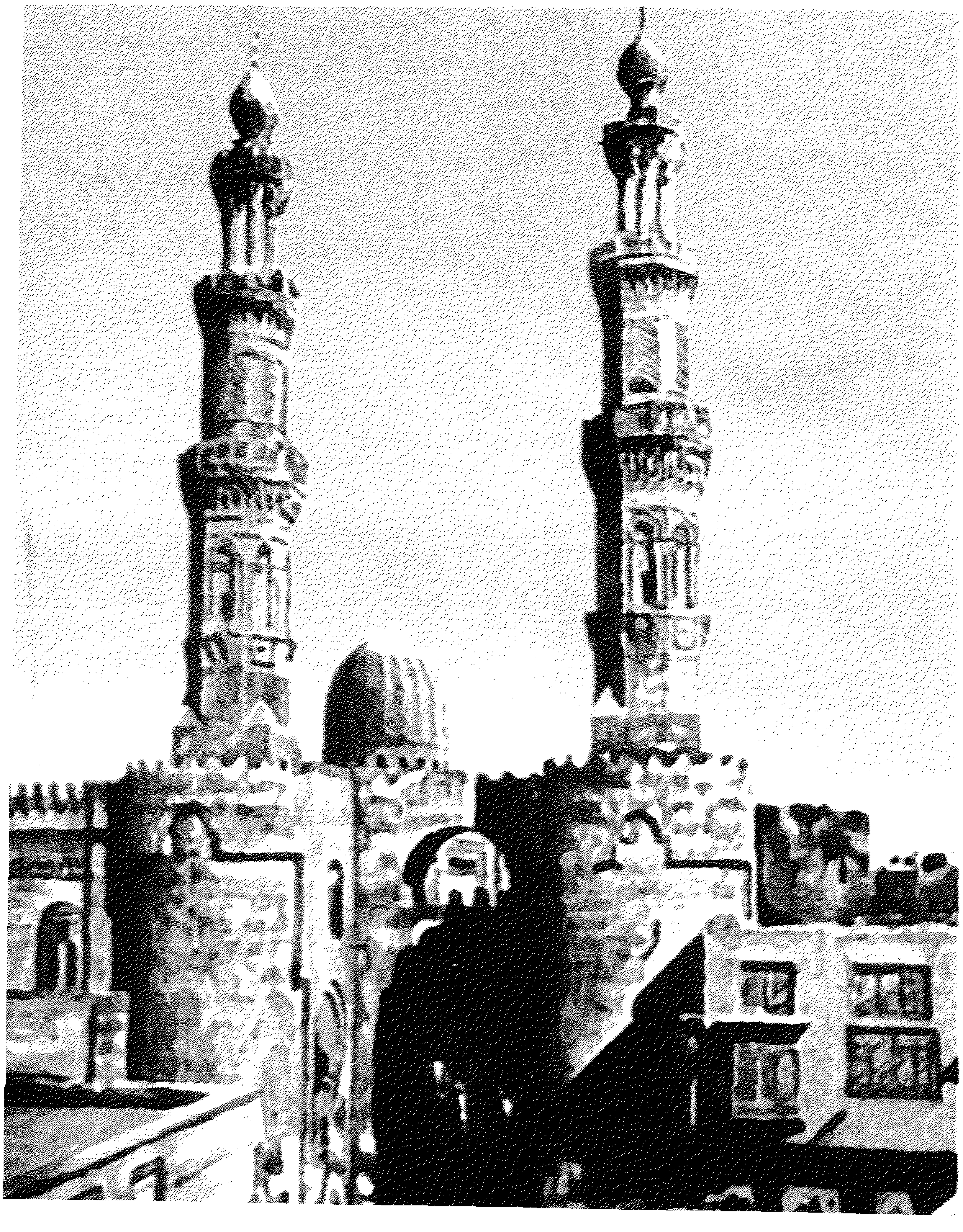

مسجد المؤيد شيخ المحمودى

تربة الأشرف قايتباى بصحراء قايتباى بالقرافة الشرقية:

وهذه التربة فى الواقع مجموعة نادرة من المبانى بديعـة التصميم متناسقة المبانى، بهـا زخارف جمـالية بديعـة، توجد بمقابر الممـاليك، وهى تتكون من مدرسة وملحقاتها ، وتربة ، وسبيل، وكُتاب، أقامها السلطان الأشرف قايتباى فى الفتـرة ما بين سنوات ٨٧٧-٨٧٩ هـ/ ١٤٧٢- ١٤٧٤م. ويوجـد مدخل هذه المجموعة فى الواجهة البحرية.

مسجد (مدرسة) الغورى:

يوجد هذا المسـجد بشارع الغورية ، فى مـواجهـة منشآت الغـورى الأخـرى وهى: المدفن والخـانقـاه والمكتب، ويفـصل بينهـما شـارع الغورية ، وكـان إنشـاؤه سنة ٩٠٩ - ٩١٠هـ/ ١٥٠٣م، وهو يتألف من صحن يحيـط به أربعة إيوانات أكـبرها الإيوان الشرقى يغطيها جـميعها سقف ذو نقوش مموهة بالذهب. وأرضـيـة الصــحن والإيوانات مـغطاة بالرخـام المتعـدد الألوان البديع الصنع. ومـدخل المدرسة فى الواجهة الشرقية.

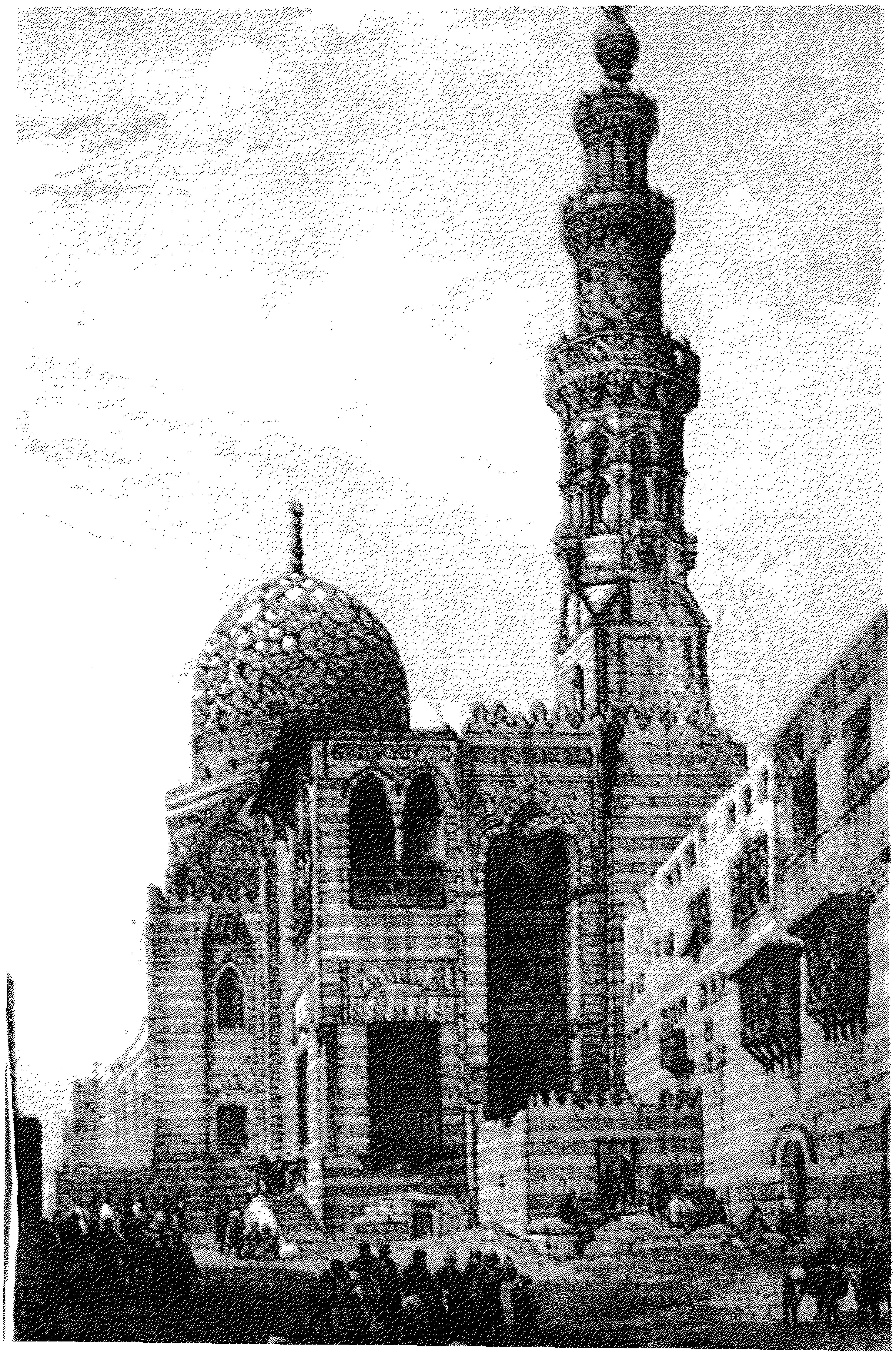

جامع السلطان قايتباى

- القصور والقلاع :

- قصر بشتاك الناصرى :

من أهم القصور المملوكية المتبقية حتى الآن: قصر بشتاك الناصرى (سيف الدين) الذى كان أميراً مقربًا من الملك الناصر محمد بن قلاوون.

بُنى هذا القصر سنة ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م، وهو يشرف من أعلاه على القاهرة والقلعة والنيل والبساتين، ولم يتبق من هذا القصر سوى قاعة جميلة ذات سقف ونافورة متصلة بجامع السلطان حسن، ومدخل حمام القصر المكسو بالرخام الملون.

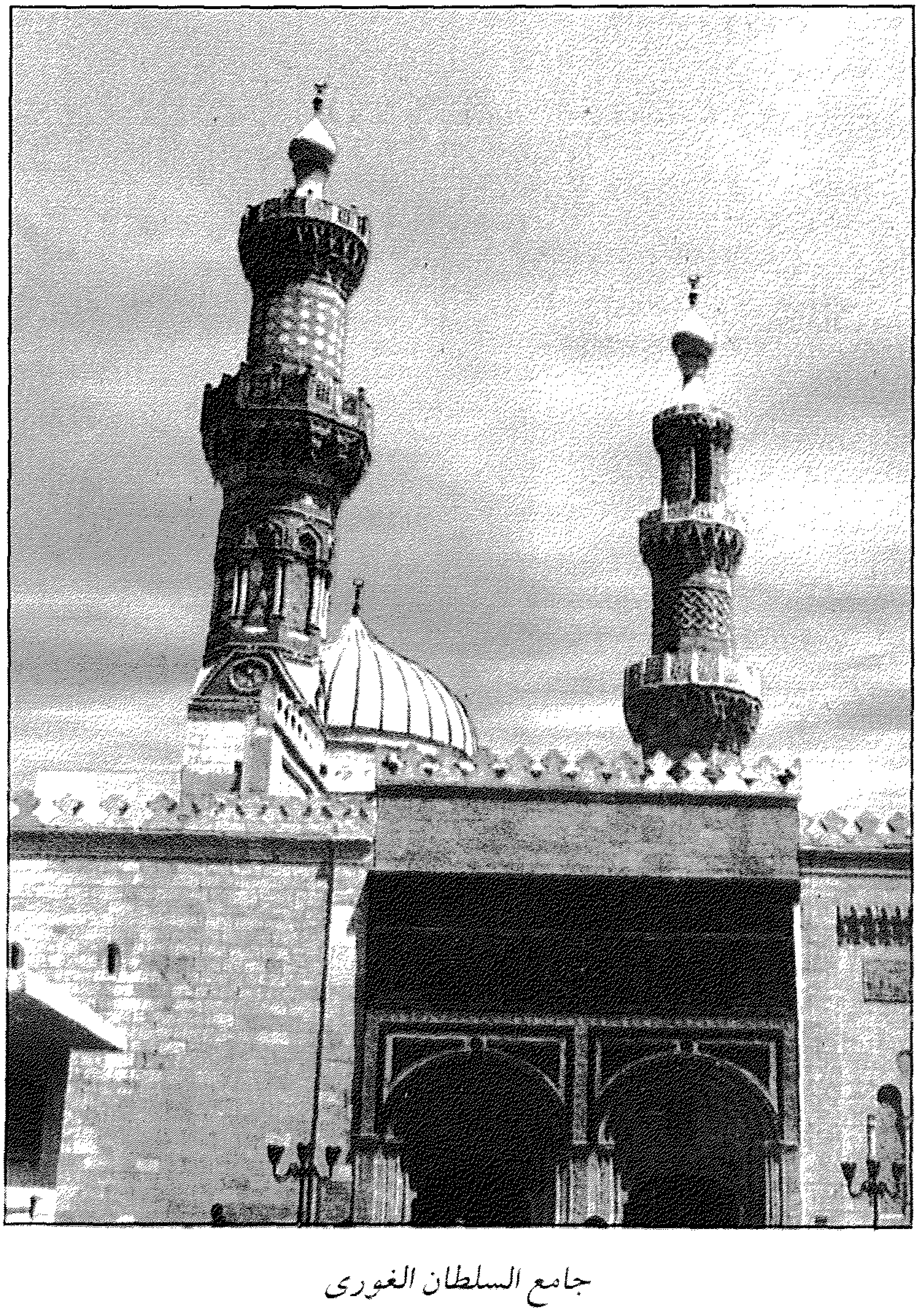

جامع السلطان الغورى

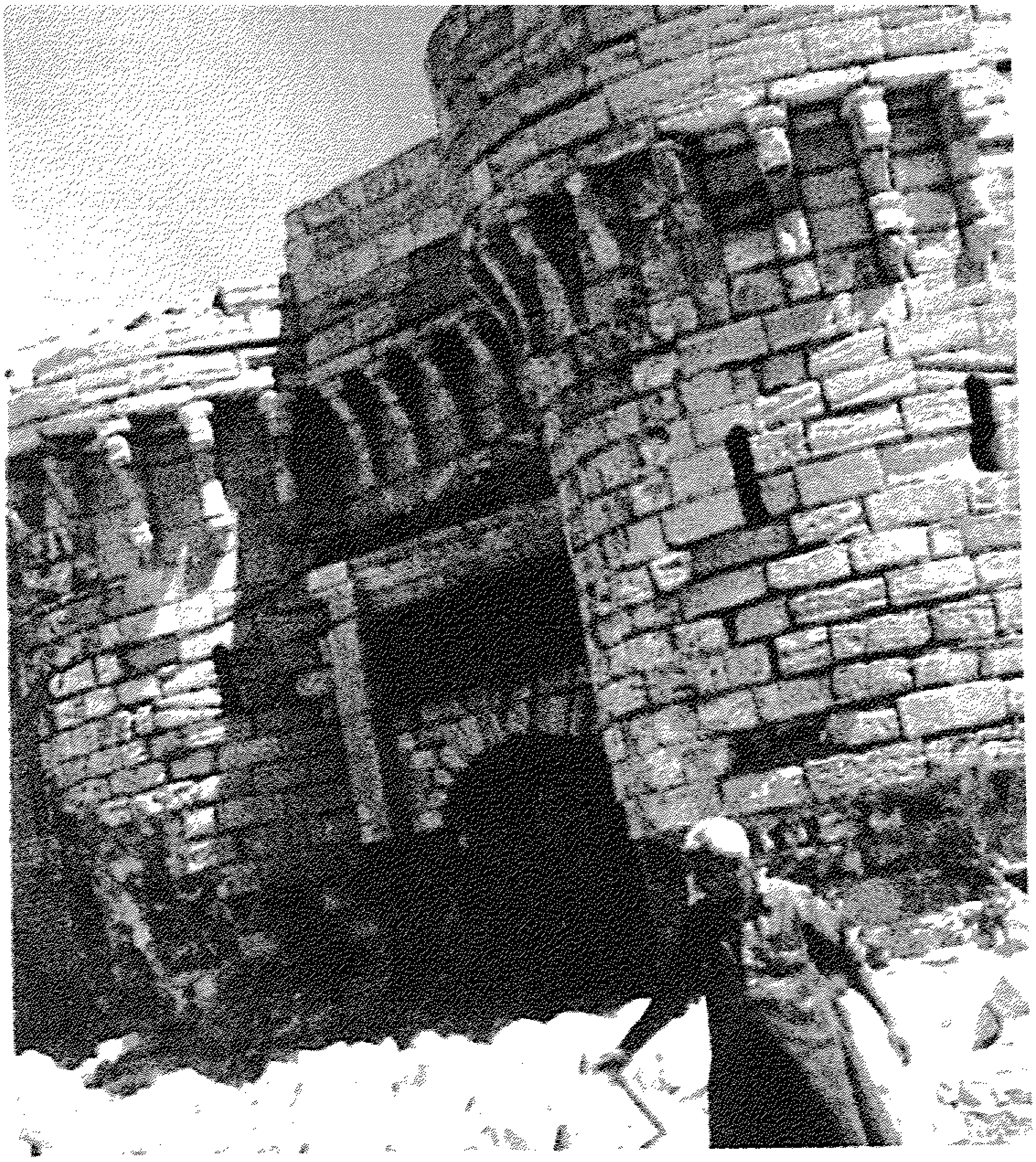

الباب الرئيسى لقلعة قايتباى بالإسكندرية

- قصر قوصون، القائم بقايا منه خلف مسجد السلطان الناصر حسن.

- وأهم القلاع المتبقية من العصر المملوكى هما: قلعة قايتباى بالإسكندرية وقلعته برشيد.

- **الخانات:**

- خان الخليلى:

وينسب إلى سيف الدين جهاركس الخليلى، أمير آخور للسلطان الظاهر برقوق، وأحد أمراء المماليك، عاش فى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى، وقد بناه الخليلى لراحة التجار وتخزين بضائعهم وعرضها للناس فيه.

مدخل خان الخليلى - رسم من القرن ١٨

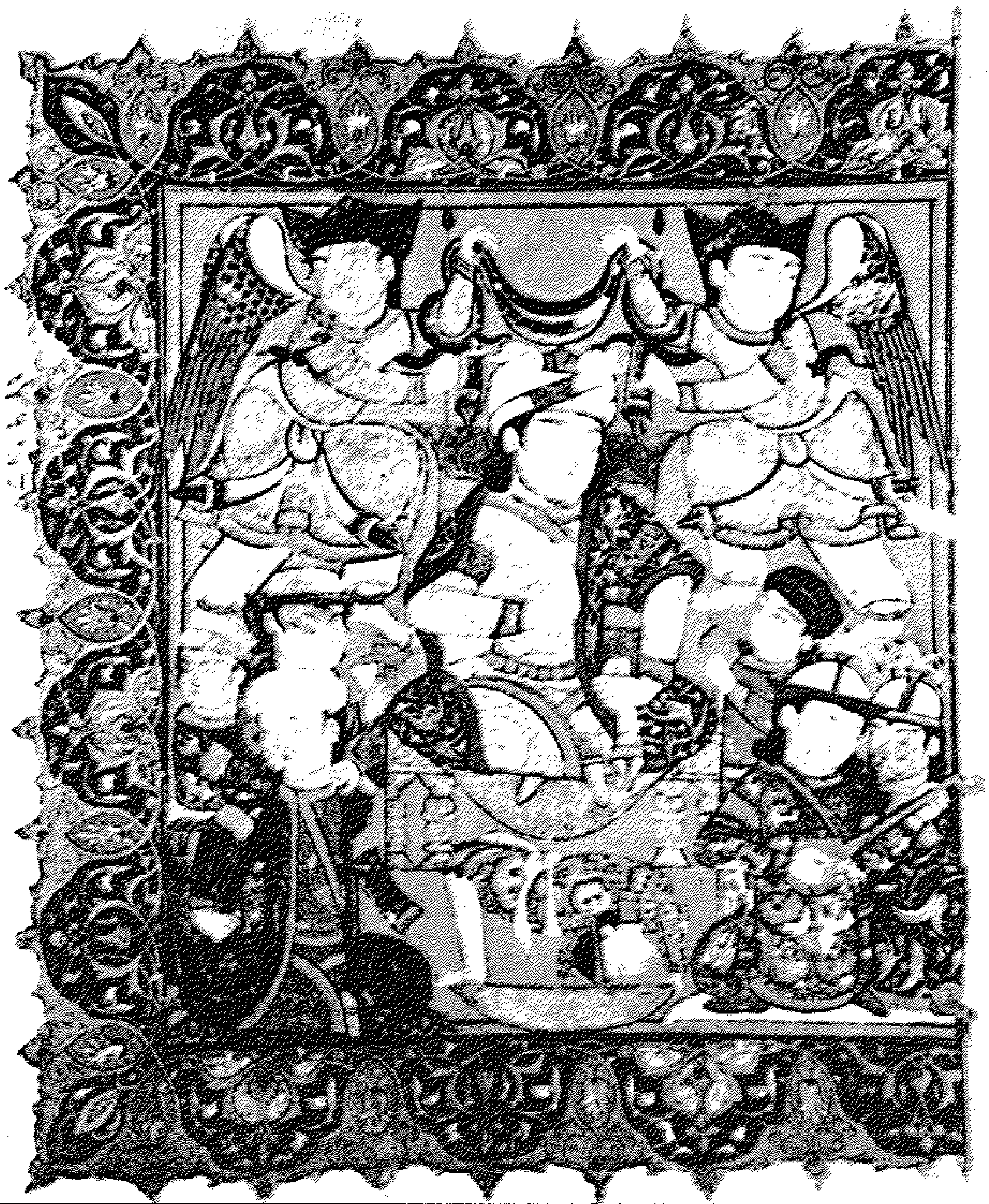

فن التصوير المملوكى -
صفحة من مقامات الحريرى
سنة ١٣٣٤م

- الأسبلة:

- سبيل السلطان قايتباى، قرب مسجد السيدة زينب، بناه السلطان قايتباى سنة ٨٨٤هـ/ ١٤٧٩م.

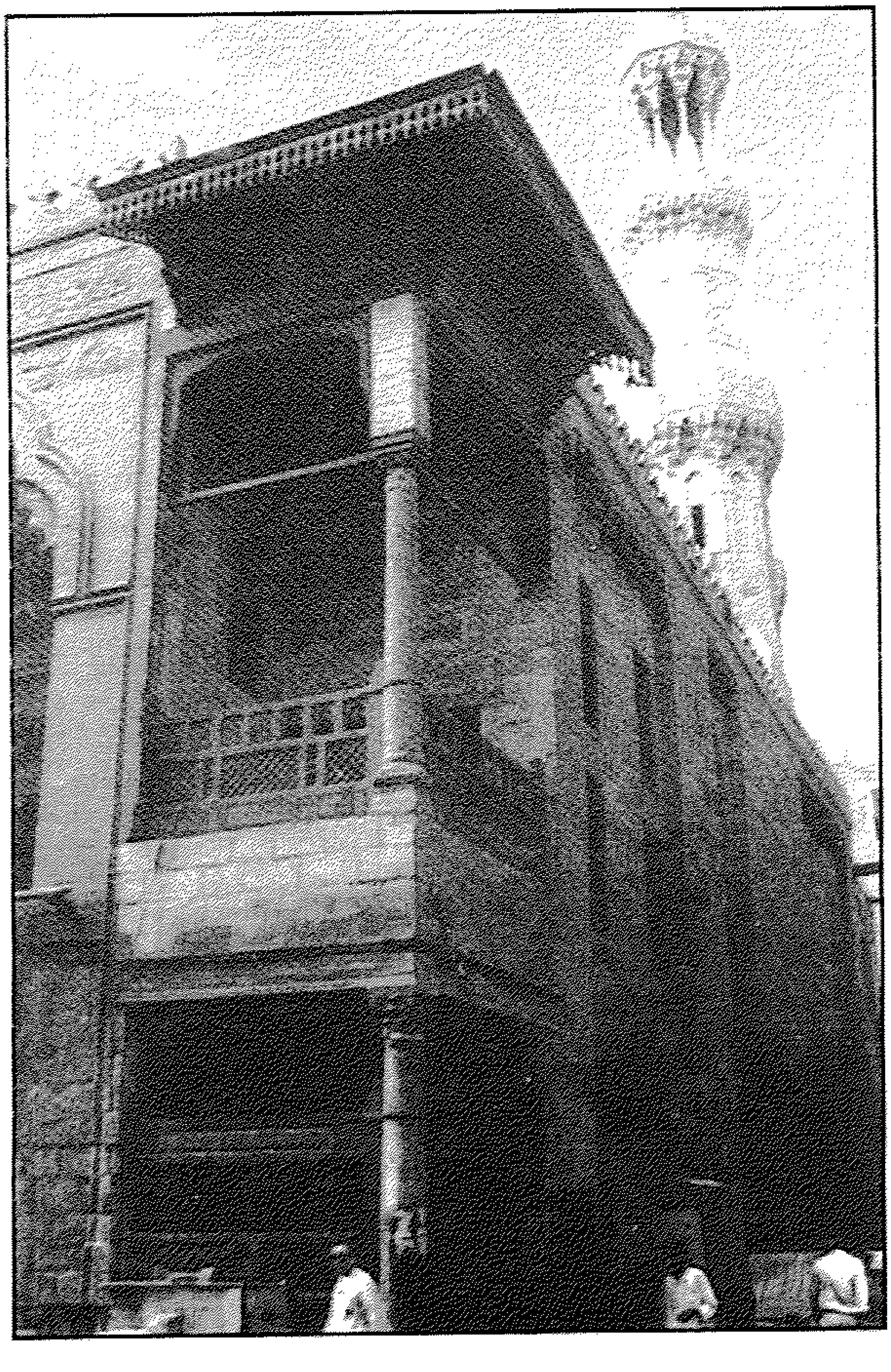

سبيل القاضى عبد الباسط
(سنة ٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م)

التحف الفنية الباقية من عصر سلاطين المماليك

ازدهرت الفنون الإسلامية في عصر سلاطين المماليك، وغصت قصورهم وبيوتهم بالتحف الثمينة من خشبية وخزفية وزجاجية وبلورية وعاجية ومعدنية، وفرشت بالطنافس والأبسطة والرياش الثمينة.

وقد وصلت لأيدينا نماذج كثيرة من كل ذلك محفوظة الآن في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة، نأتي على وصف نماذج من تلك التحف.

- التحف الخشبية:

أشتملت التحف الخشبية في العصر المملوكي على المنابر والكراسي والمقاعد والمشربيات والسقوف والأبواب والصناديق، وتمتاز كل هذه التحف بالأشكال الهندسية البديعة المحفور عليها.

ويوجد في المتحف الإسلامي بالقاهرة نماذج كثيرة لكل هذه الأنواع من أجملها الكرسي المستحضر من مسجد السلطان الأشرف شعبان (٧٧٠هـ/ ١٣٦٣م) وهو على شكل منشور سداسي من خشب تركي مكسو بالفسيفساء الدقيقة من السن والأبنوس. وكانت أمثال هذا الكرسي تستعمل في قصور سلاطين المماليك لوضع موائد الطعام عليها، كذلك كانت تُستخدم في المساجد لوضع الشموع التي توقد ليلا عند الصلاة، بجانب المحراب.

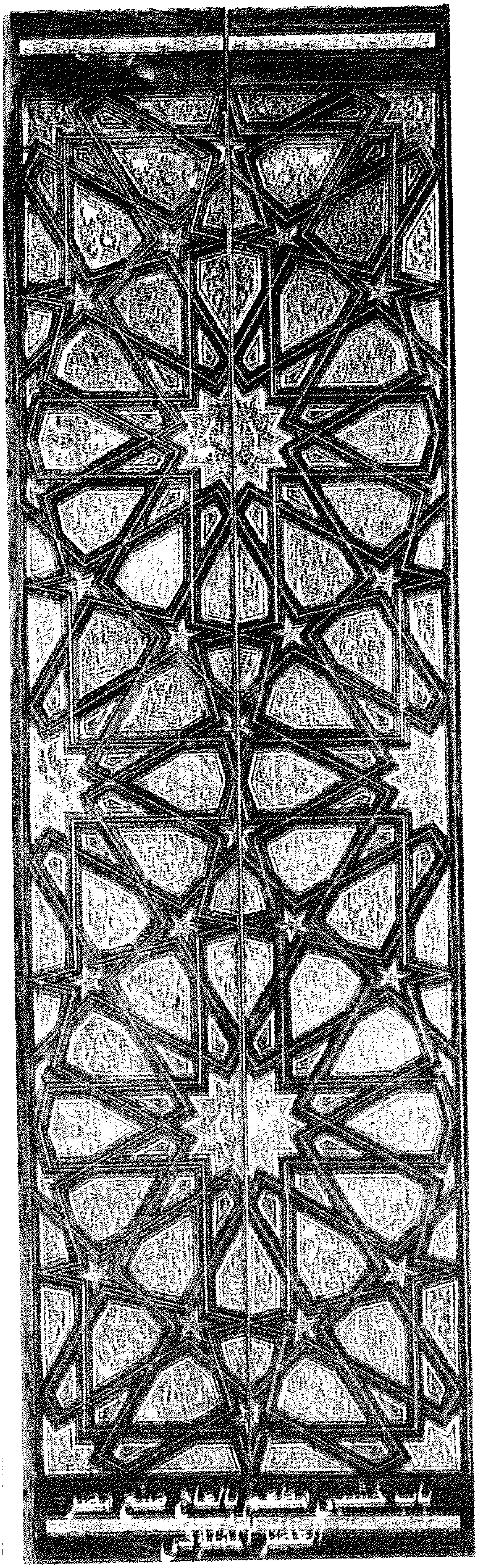

باب خشبي مطعم بالعاج صنع بمصر العصر المملوكي

وشهـد عصر المـماليك ازدهار صناعة المشـربيات المصنوعـة من الخشب الخرط الدقيق الصنـع، وتوجد نماذج منها فى بيوت القاهرة القـديمة التى ترجع إلى العصر المملوكى.

حشوة خشبية مزخرفة بالوحدات الإسلامية

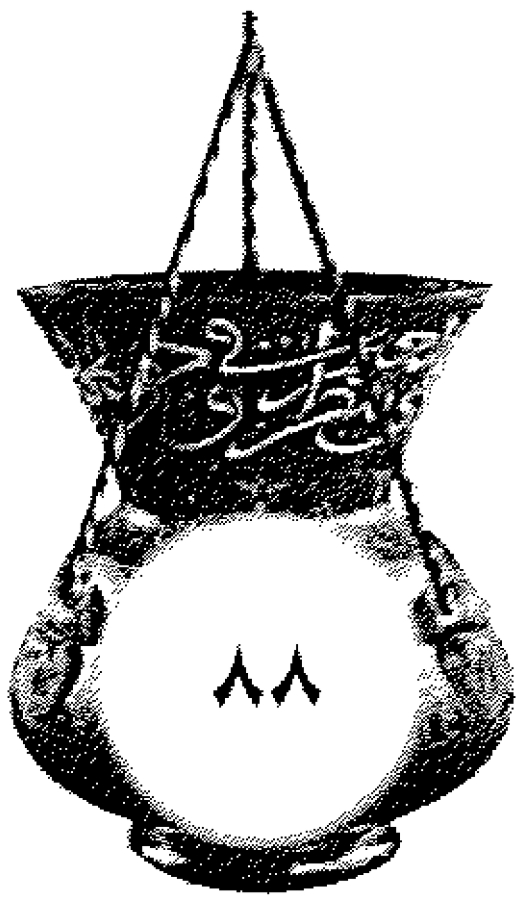

- التحف النحاسية :

شهد عصر المماليك تطوراً كبيراً فى تصنيع التحف النحاسية المكفتة بالذهب والفضة، وكان القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى العصر الذهبى لذلك النوع من التحف. وبالمتحف الإسلامى بالقاهرة مجموعة كبيرة من تلك الأوانى التى ترجع إلى ذلك القرن، بمختلف أنواعها من صوان وكراسى وشمعدانات ومقالم وشبابيك وأبواب، ومن أجمل هذه التحف كرسيان من عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون مصنوعان من النحاس المخرم والمنقوش، ويحمل أحدهما اسم صانعه وهو محمد بن سنقر البغدادى، وتاريخ صنعه سنة ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م فى عهد الناصر محمد بن قلاوون.

ومن أجمل الشمعدانات المحفوظة بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة شمعدان صُنع بأمر السلطان قايتباى سنة ٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م ليُهدى إلى الحرم النبوى الشريف بالمدينة المنورة.

ومن أجمل المقالم مقلمة من النحاس مكفتة بالذهب والفضة باسم السلطان الملك المنصور محمد المتوفى سنة ٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م.

ومن أجمل التنانير (الأفران) النحاسية تنور باسم السلطان حسن مؤرخ سنة ٧٦٣هـ/ ١٣٦١م على شكل منشور مثمن وفوق التنور قبة صغيرة وهلال.

ولا تزال مساجد كثيرة من مساجد المماليك تحتفظ بشبابيكها وأبوابها المكفتة كأبواب جامع السلطان حسن ومصراعى باب جامع السلطان برقوق.

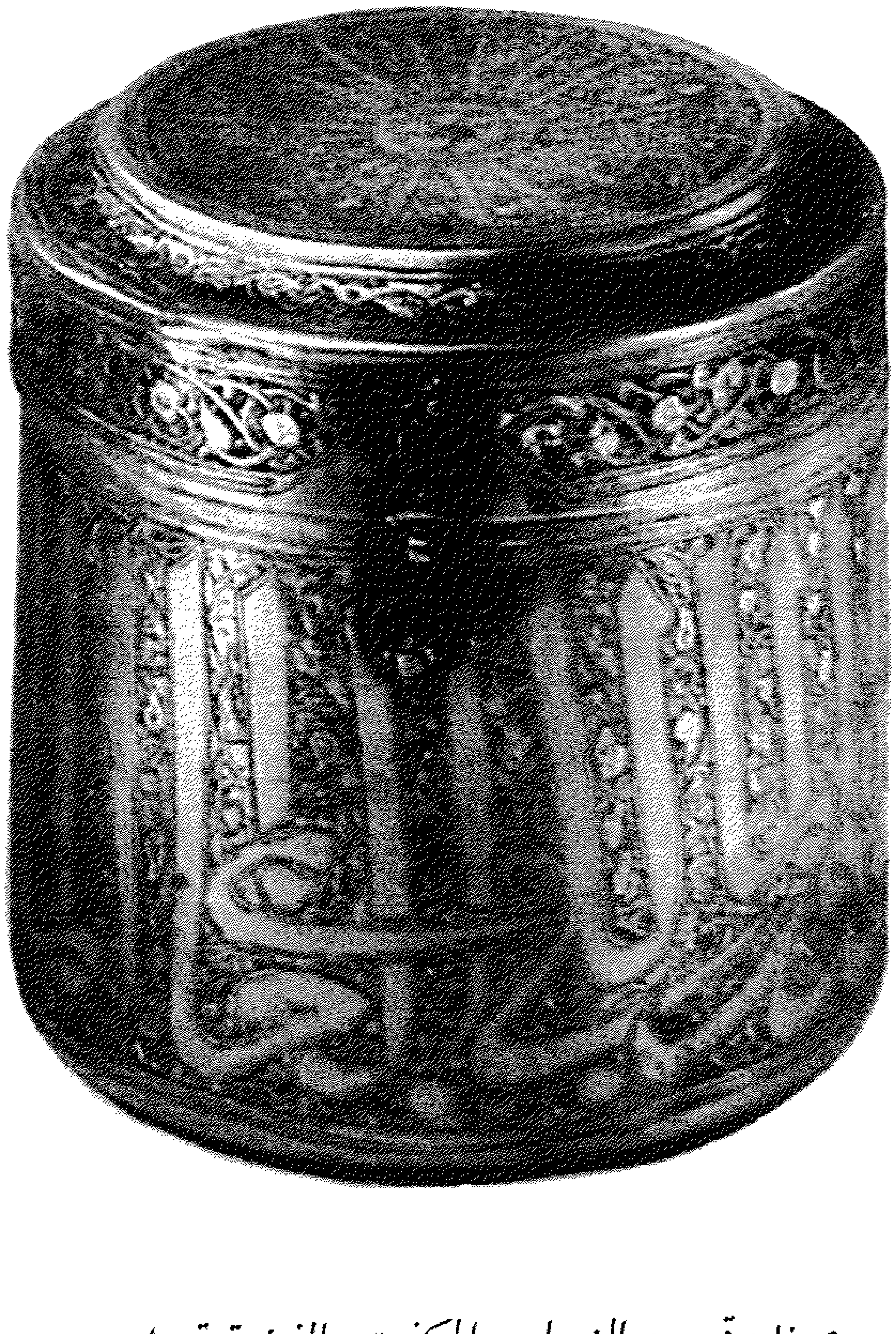

صندوق من النحاس المكفت بالفضة ق ٨ هـ

التحف الخزفية والقاشانى :

ازدهرت الصناعة الخزفية فى مصر فى عصر المماليك متأثرة بصناعة الخزف الإيرانى. وانتشرت صناعة الخزف ذى الزخارف تحت الطلاء باللونين الأخضر والأسود. وبالمتحف الإسلامى بالقاهرة قطع خزفية من أوانى وجدت فى حفائر الفسطاط حيث كانت توجد مصانع الخزف فى العصر المملوكى.

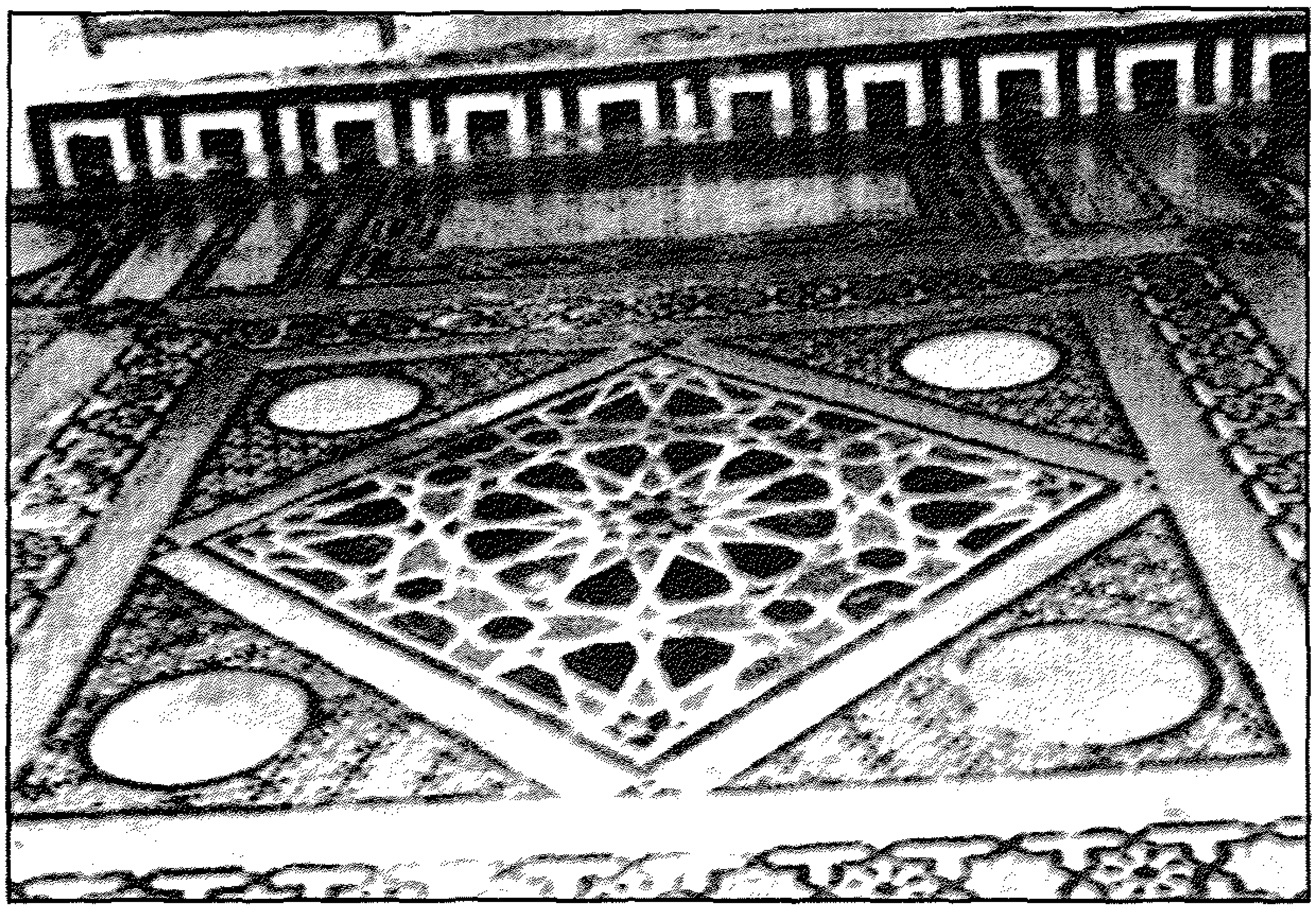

أرضية من الرخام مسجد قلعة قايتباى- الدور الأرضى

وفى نهاية القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى، ظهرت فى مصر المملوكية صناعة القاشانى الذى تُكسى به الجدران، ومن أمثلة هذا القاشانى المحفوظ فى متحف الفن الإسلامى قرص مصنوع فى مصر باسم السلطان قايتباى يرجع تاريخه إلى سنة ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م ونص الكتابة عليه « عز لمولانا السلطان، الملك الأشرف أبو النصر قايتباى، عز نصره».

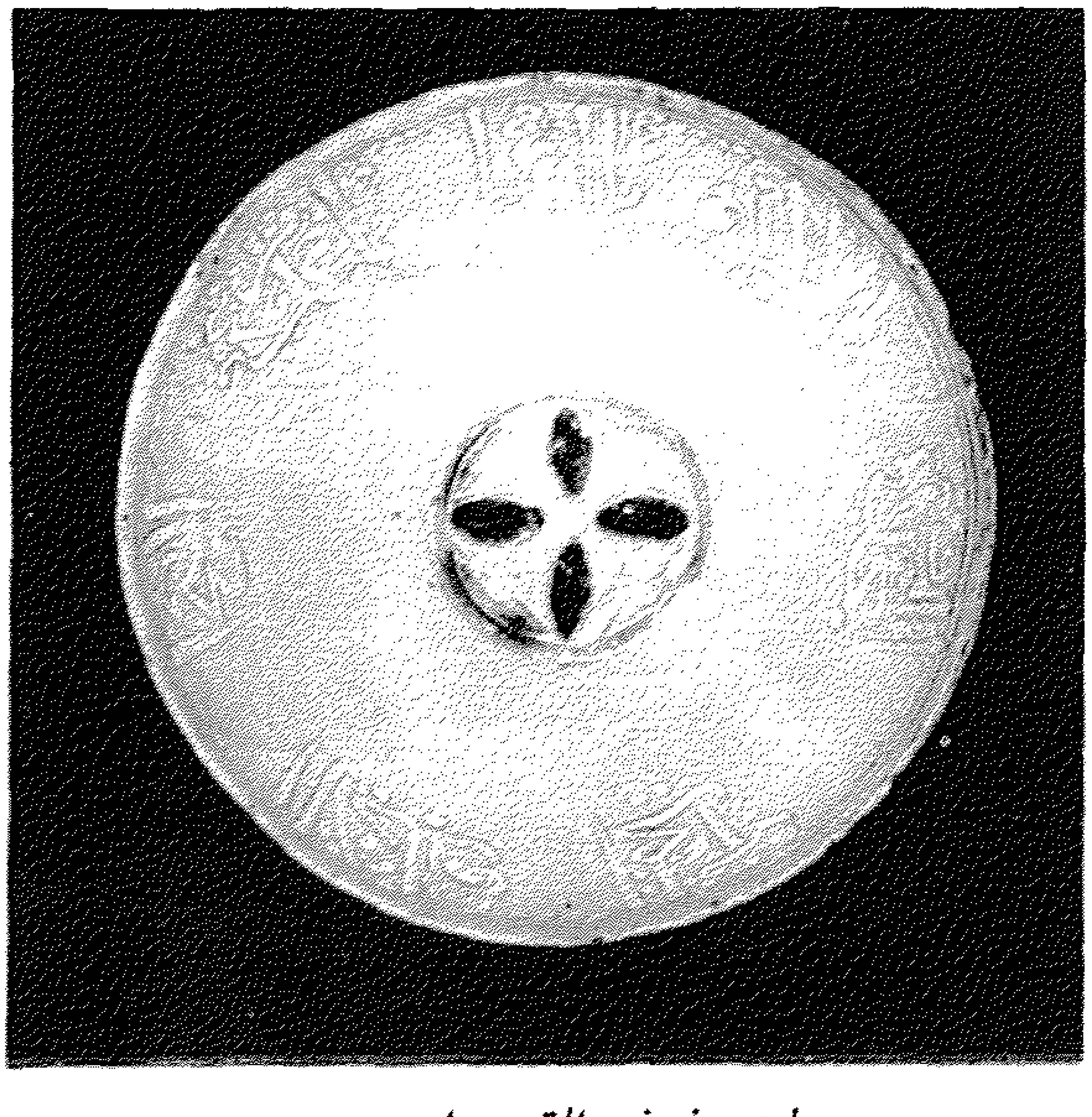

طبق خزفى القرن ٨ هجرى

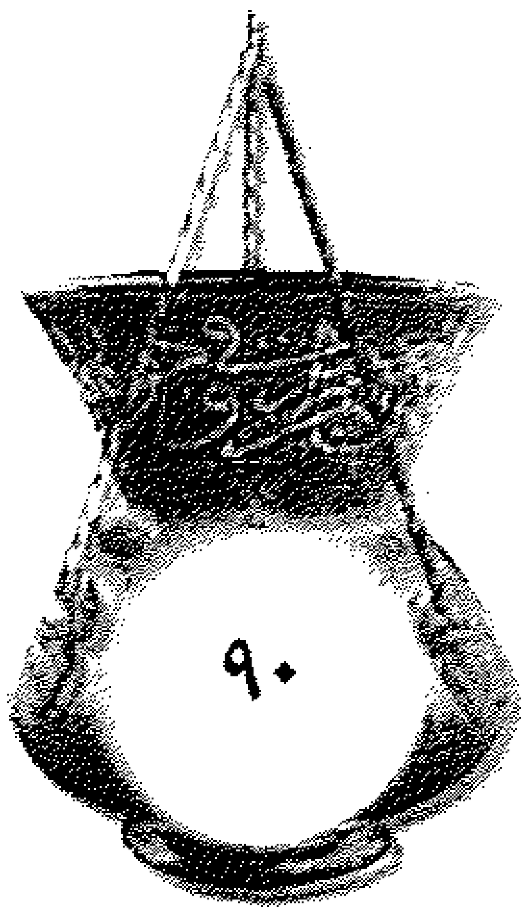

- التحف الزجاجية :

لقد صنع الفنانون فى عصر المماليك من الزجاج القوارير والأباريق والكؤوس والمصابيح والزجاجات، وأجمل ما صُنع فى ذلك العصر المشكاوات، وهى بحق فخر عصر المماليك فى صناعة الزجاج. وقد وصلتنا مجموعة كبيرة منها محفوظة بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة، وهى تعد أكبر وأنفس مجموعة من المشكاوات فى العالم. وقد طليت هذه المشكاوات بالمينا وعليها زخارف قوامها أشرطة تملؤها كتابات أو جامات وفروع نباتية، وتغطى سطح بعضها رسوم زهور ونباتات، وقد وردت على كثير من المشكاوات الآية القرآنية الكريمة : ﴿الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح﴾.

وأكثر أسماء السلاطين وروداً على هذه المشكاوات اسم السلطان حسن، الذى جُلب من مسجده أكبر عدد منها، ثم الناصر محمد بن قلاوون، ثم السلطان برقوق ، ثم السلطان قايتباى.

لوحة من الزخارف الجصية - السلطان قايتباى

قنينة زجاجية مموهة بالمينا -

سنة ١٣٠٠

مشكاة زجاجية مموهة بالمينا- من الناصر محمد
لروح السلطان سيف الدين قُطز

غروب شمس دولة المماليك

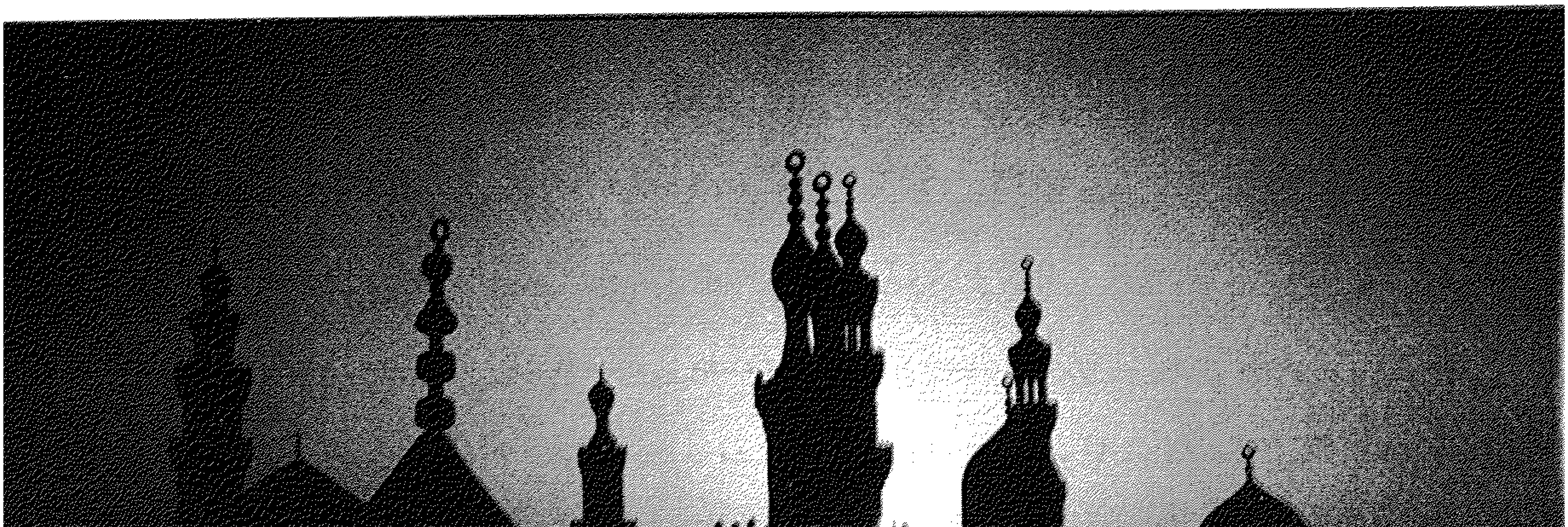

المصادر والمراجع

أولا المصادر :

- ابن إياس (محمد بن أحمد) ت ٧٧٢هـ/ ١٣٧٠م.

«بدائع الزهور فى وقائع الدهور» ، المجلد الأول، طبعة بولاق ١٨٩٣ .

- ابن تغرى بردى (أبو المحاسن يوسف) ت ٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م.

«النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة»، ١٣ جزء ، طبعة دار الكتب، القاهرة ١٩٣٣ .

- ابن عبد الظاهر (محيى الدين أبو الفضل) ت ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م.

«تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور»، تحقيق مراد كامل، القاهرة ١٩٦١ .

- السخاوى (شمس الدين محمد) ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م.

«الضوء اللامع لأهل القرن التاسع»، ١٢ جزء ، القاهرة ١٩٣٤-١٩٣٦ .

- السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن) : ٩١١هـ / ١٥٠٥م

«تاريخ الخلفاء» ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٦٤ .

«حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة»، جزءان، طبعة دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٩٨ .

- العمرى (ابن فضل الله) ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م.

«مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار»، ٢٠ جزءا، (مخطوط) بدار الكتب المصرية، تحت رقم ٢٥٦٨ تاريخ

- القلقشندى (شهاب الدين أحمد) ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م

«صبح الأعشى فى صناعة الانشا»، ١٤جزء ، القاهرة ١٩١٣-١٩٢٢ .

- المقريزى (تقى الدين أبو العباس أحمد) ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م.

«إغاثة الأمة بكشف الغمة»، تحقيق محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٤٠ .

«السلوك لمعرفة دول الملوك»، نشر محمد مصطفى زيادة، جـ ١، ٢، القاهرة ١٩٣٤-١٩٤١ .

وتحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، جـ٣، ٤، القاهرة ١٩٣٩-١٩٧١.

«المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»، جزءان، طبعة بولاق ١٢٧٠هـ/ ١٩٢٢م.

ثانيا: المراجع العربية:

- إبراهيم على طرخان: «مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة»، القاهرة ١٩٥٩.

- أحمد السيد دراج: «المماليك والفرنج»، القاهرة ١٩٦١.

- رونسيمان، س: «تاريخ الحروب الصليبية»، ترجمة السيد الباز العرينى، جزءان، بيروت ١٩٦٨.

- سعيد عبد الفتاح عاشور: «الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام»، القاهرة ١٩٧٠.

«الحركة الصليبية»، جـ١، القاهرة ١٩٦٣.

«قبرس والحروب الصليبية»، القاهرة ١٩٥٧.

«مصر فى عصر دولة المماليك البحرية»، القاهرة ١٩٥٩.

- السيد الباز العرينى: «المماليك»، بيروت ١٩٦٧.

- شحاتة عيسى إبراهيم: «القاهرة»، مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٤.

- عطية القوصى: «تاريخ مصر الإسلامية من الفتح العربى حتى الفتح العثمانى»، القاهرة ١٩٩٧.

«تجارة مصر فى البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية»، القاهرة ١٩٧٦.

- على إبراهيم حسن: «دراسات فى تاريخ المماليك البحرية»، القاهرة ١٩٤٨.

- محمد جمال الدين سرور: «دولة بنى قلاوون فى مصر»، القاهرة ١٩٤٧.

«الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره»، القاهرة ١٩٣٨.

- نعيم زكى: «طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب»، القاهرة ١٩٧٣.

- هايد، ف: «تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى»، جزءان، ترجمة أحمد رضا، القاهرة ١٩٩١.

ثالثا المراجع الأجنبية :

- Atiya, A.S. : "Crusade, Commerce and Culture", London 1962.

"The Crusades in Later Middle Ages", v.II, London 1938.

- Muir, S.W. "The Mamluke Slave Dynasty", Amesterdam 1968.

- Newton, A.P. "Travel and Travellers of the Middle Ages", London 1930.

- Pirenne , H. : " Histoire économie et social du Moyen Age", Paris 1951.

- Quatremére, E.: "Histoire de Sultans Mamlouks de l' Egypte", Paris 1837 - 1845.

- Stanely Lane - Pool: "A History of Egypt in the Middle Ages", London 1930.

- Wiet, Gaston: "L' Egypte Arabe", T.IV, Paris 1937.

□

المحتويات

مقدمة	١
تمهيد	٣
الفصل الأول: دولة المماليك البحرية	٨
الفصل الثاني: دولة سلاطين المماليك البرجية (الجراكسة)	٤٤
الفصل الثالث: الجانب الحضاري - أهم الآثار المعمارية الباقية من عصر سلاطين المماليك	٧٦
المصادر والمراجع	٩٢
المحتويات	٩٥

Abstract

This work depicts one of the glorious chapters in the history of Egypt and the Islamic world. It is the age of the Mamluk Sultans who, though aliens in origins, were soon absorbed completely by the Egyptians and Islamic traditions.

The Mamluk era lasted for three centuries, and produced wonderful leaders such as Baybars, Qutuz, and Qalawoon. They have managed to defeat both the Crusaders and the Mongols consequently in the battles of Ain Galwoot 1260 A.D, and the battle of Acre 1291 A.D. Thus, the whole area was liberated from the attacks of Hulagu, and Timour Lang (Timer lane).

The Mamluk Sultans built up a powerful empire and a glorious civilization in all levels. The visitor to Egypt will marvel at the architectural masterpieces, particularly in Cairo of Al-Muezz. Each single stone from that epoch bears the smell of history.

Dr. Attia El- Qossi

Encyclopaedia Introduction

History is the most esteemed branch of human knowledge, thus a historian should abide by the virtue of objectivity, foresight and the readiness to learn from the lessons of the past in order to confront present and future challenges.

History is not a kind of tell-tale, rather it is the morale lying behind events and happenings. History again has a wonderful trait which is "continuum" from the past to the present, and ventures of the future.

Episodes of history are transformed from one generation to the other via the narrative which preserves the accomplishments of each and every historical epoch.

However, history does not in any way repeat itself, for every day there is something new and dynamic in our globe. It is true that the stage for events remains the same, but seasons change and the human being himself does change, socially and culturally as well.

In view of all these considerations, Dar El-Fikr-EL-Arabi, founded by Mr. Mohamed Mahmoud El Khodari, has taken on itself to foster this colossal project of a historical serial involving past, present, and contemporary records from a universal approach.

It is noteworthy that the authors of this serial are from the elite of the Egyptian historians.

We sincerely hope that the recipient will enjoy reading the volumes of this serial for which Dar- El-Fikr has devoted all its efforts and technologies to produce it in this colorful format.

Dr. Said Abdel Fattah Asshour

CONSULTATIVE COMMITTEE FOR:
THE ENCYCLOPAEDIA OF HISTORY, ARCHAEOLOGY AND CIVILIZATION

P. Said Abd El-Fattah Ashour	Professor of Medieval History - Faculty of Arts - Cairo University. Chairman of the Arab Historians Union.	**Chairman**
P. Adel Hassan Ghoneim	Professor of Modern History - Faculty of Arts - Ain - Shams University.	**General Coordinator**
P. Abd El-Halim Nur Eldin	Professor of Ancient Egyptian Language - Facuty of Archaeology - Dean of the Faculty of Archaeology, Fayyoum Branch, Cairo University. Director of the Centre of Calligraphy, Bibliotheca Alexandria.	**Rapporteur of Ancient History Series**
P. Ishak Ebeid	Professor of Medieval Hisrory - Faculty of Arts - Ain - Shams University	**Rapporteur of Medieval History Series**
P. Essam El-din Abd El-Raouf	Professor of Islamic History - Faculty of Arts - Cairo University.	**Rapporteur of Islamic History Series**
P. Gamal Zakariya Kassem	Professor of Modern Hstory - Faculty of Arts - Ain - Shams University.	**Member**
P. Attiya Al-Qoussy	Professor of Islamic History - Faculty of Arts - Cairo University.	**Member**
P. Saber Diab	Professor of Islamic History - Dar El-Ulum Faculty, Fayyoum Branch, Cairo University.	**Member**
P. Raafat Abd El-Hamid	Dean of the Faculty of Arts (Formerly) - Ain - Shams University & Professor of Medieval Hisrory.	**Member**

Editing Directosrs: Chemist/ Amin Mohamed Al-Khodary
Engineer/ Atef Mohamed Al-Khodary

Committee Secretary: Abd El Halim Ibrahim Abd El-Halim

Designed by : Mohy El-Din Fathy El-Shaloudy

Correspondence & Communications:

Dar El-Fikr El - Arabi

The Encyclopaedia of History, Archaeology and Civilization

94 Abbas Al-Akkad St., Nasr City - Cairo - Egypt

Tel.: 2752984 Fax: 2752735

www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com

The Encyclopaedia of History, Archaeology and Civilization

Medieval History

21

The Age of Mamluk Sultans in Egypt

Dr. Attia El- Qossi

Publisher
Dar Al-Fikr Al-Arabi
94 Abbas El - Akkad St. Naser City - Cairo
tel : 22752794 . Fax : 22752735
www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com

The Encyclopedia of History, Archaeology and Civilization

Medieval History 21

The Age of Mamluk Sultans

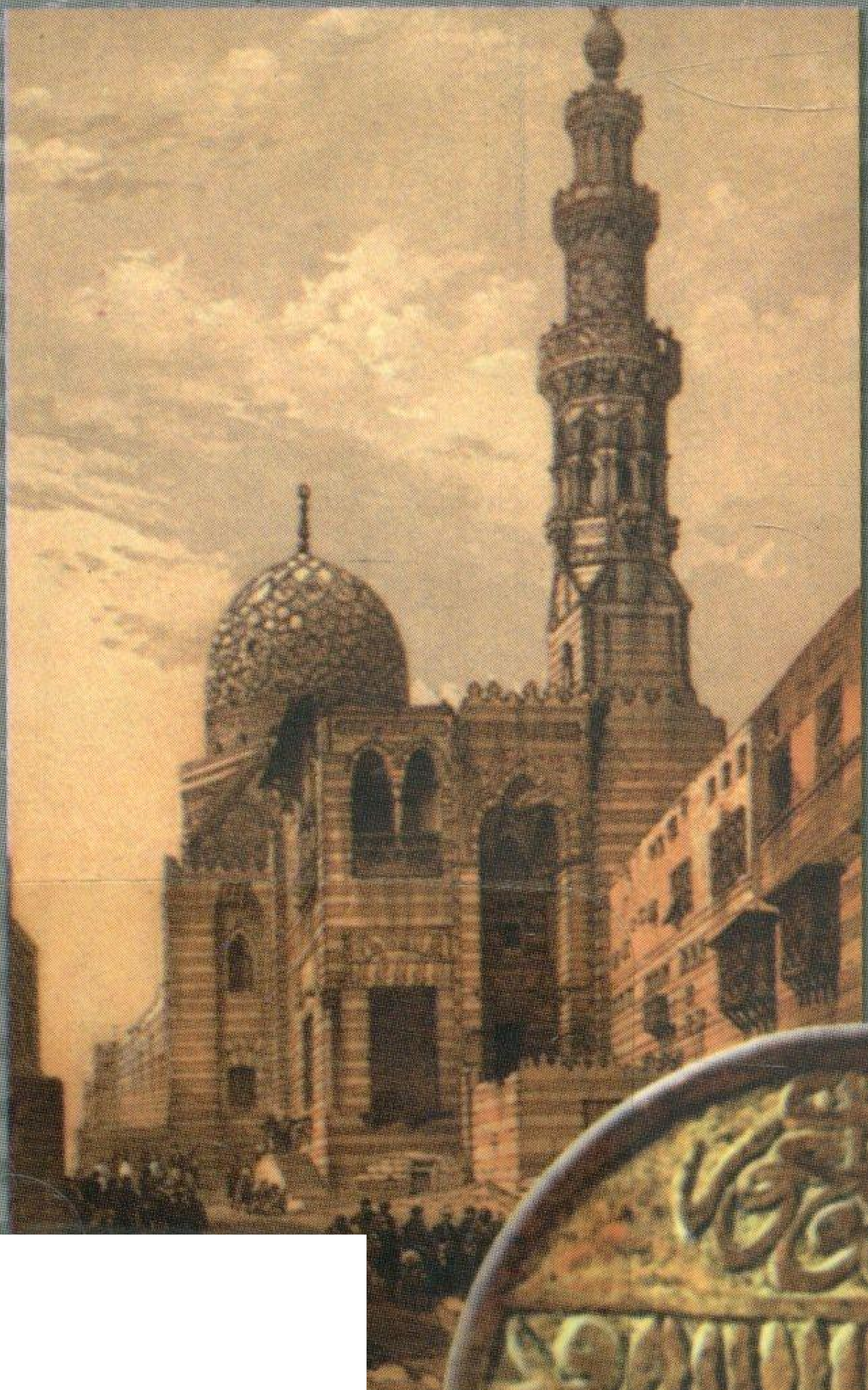

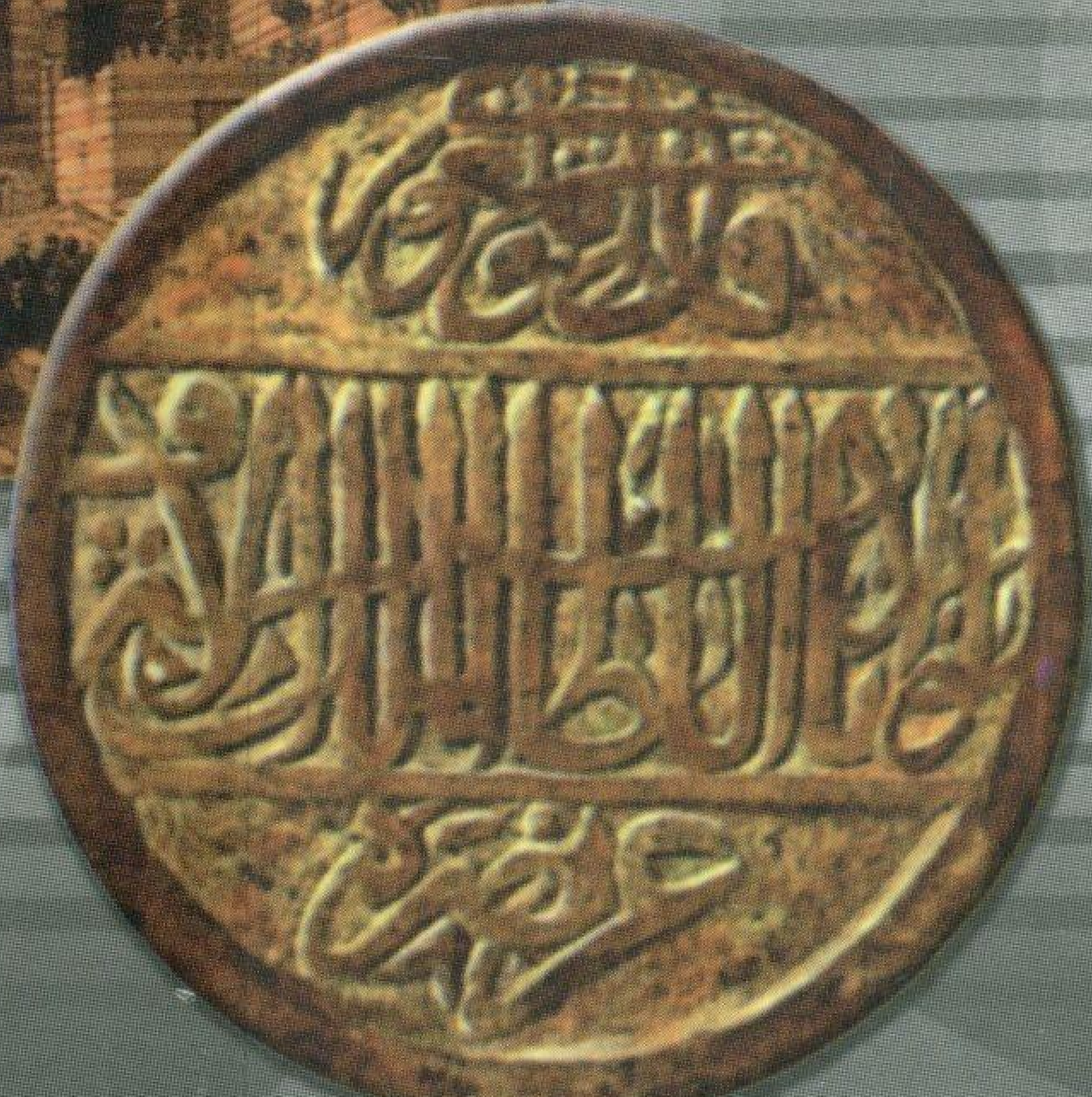

Dr. Attia El- Qossi

تأسست سنة ١٣٦٥هـ ١٩٤٦م
دار الفكر العربي